شرح حديث

عمران بن حصين

« كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء
وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السموات والأرض »

تأليف

شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، ناصر السنة، وقامع البدعة

أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية

المتوفى سنة ٧٢٨هـ رحمه الله تعالى

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه

أبو عبد الرحمن فواز أحمد زمرلي

عفا الله تعالى عنه





الطبعة الأولى
١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م



بيروت - لبنان - هاتف وفاكس: ٦٥٥٣٨٣ - ص.ب: ١٤/٥١٣٦

شرح حديث
عمران بن حصين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

إنّ الحمد لله نحمدُهُ، ونستعينُهُ، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا.

مَنْ يهده الله فلا مُضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له.

وأشهد أنّ محمداً عبدُه ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد:

فإنّ أصدق الحديث كلام الله، وخيرَ الهدي هدي محمد رسول الله ـ ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

فهذه هي الرسالة الثالثة أقدمها للأخوة المسلمين ضمن سلسلة قام شيخ الإسلام ومفتي الأنام بشرح بعض الأحاديث الشريفة.

فكانت الرسالة الأولى: شرح حديث «إنما الأعمال بالنيات».

والثانية: تفريج الكروب، شرح حديث «دعوة أخي ذي النون..».

والثالثة: هي شرح حديث عمران بن حصين.

وقد قام شيخ الإسلام في هذه الرسالة المباركة بتوضيح معاني هذا الحديث بما يشفي العليل، ويروي الغليل:

فأبان معانيه بأبهى أسلوب وأروعه، موضحاً أنّ الخلاف في ألفاظ حديث عمران، سببه اختلاف بعض الرواة، ورجّح لفظة من هذه الألفاظ مبيّناً دليل ترجيحه بأسلوب علمي رصين هادىء، لا يرتاب به منصف، يبتغي الحق.

وهذا الشرح لهذا الحديث، قد أثار بعض الناس اللغط فيه

حول كلام شيخ الإسلام، ونسبوا إليه زوراً وبهتاناً ـ ما لم يقله، بل قال عكس ذلك ـ كما سأبين ذلك بعد قليل.

وهذا الأمر مما يدعو للعجب، كيف أنهم يقوّلونه ما لم يقله، ثم يتهمونه، وهذا سببه اتباع الهوى، نعوذ بالله من ذلك. وقد شنّع الله على متبعي الهوى فقال: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

فشيخ الإسلام ومفتي الأنام لم يأت بشيء جديد، ولا بحكم جديد، بل جلّ الأحكام التي تبنّاها، هي مبثوثة بين أقوال أهل العلم، فلماذا هذا التشويش، وهذه الضجة الخداعة، فالشمس واضحة، والنهار ضوؤه ساطع، وهو كالجبل الأشم الشامخ، فمثال هؤلاء:

كناطح صخرة ليوهنها...

فهل يجني إلا كسر وشج رأسه، وهذه هي عاقبة المفترين المكذبين المخادعين، والله سبحانه وتعالى تكفّل بحفظ أوليائه والدفاع عنهم، ونصرهم في حياتهم وبعد مماتهم. وقد خذل الله أعداء شيخ الإسلام قديماً، وسيخذلهم حديثاً؛ لأنّ الحق لا بد من أن ينجلي.

ولقد قمت بتحقيق هذه الرسالة عن النسخة الموجودة في الفتاوي المجلد ١٨، من الصفحة ٢١٠ ـ إلى ٢٤٣.

وقد قمت بالخطوات التالية:

١ ـ خرّجت الآيات الكريمة الواردة فيها.

٢ ـ خرّجت الأحاديث الشريفة، والآثار الكريمة، وحكمت عليها بما تقتضيه الصناعة الحديثية، مستعيناً على ذلك بأقوال أهل العلم.

٣ ـ علّقت على النص بما يحتاج من شرح غريب، أو تعليق مفيد.

٤ ـ قدّمت لهذه الرسالة بمقدمة بيّنت فيها أهمية هذه الرسالة، وما أثير حولها من قبل بعض الناس، وترجمت لشيخ الإسلام ترجمة موجزة توضّح أهم معالم حياته.

٥ ـ خرّجت الحديث الذي قام شيخ الإسلام بشرحه، وأوضحت ألفاظه، وتتبعت طرقه.

٦ ـ وضعت فهرسة لآياته، وأحاديثه، وآثاره..

هذا فما كان من صواب فمنّة من الله تعالى عليّ.

وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، أستغفر الله تعالى منه.

والحمد لله رب العالمين.

أبو عبد الرحمن

فوّاز أحمد زمرلي

تخريج الحديث

لقد ورد هذا الحديث من عدة طرق، وهي:

١ ـ طريق الثوري، عن جامع، عن صفوان بن محرز، عن عمران:

رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب (١) ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ [الروم: ٢٧]، حديث رقم (٣١٩٠) ٦/ ٢٨٦ بأوله ولم يسق لفظ بدء الخلق ولا العرش.

وفي كتاب المغازي باب (٦٧) وفد بني تميم، حديث رقم (٤٣٦٥) ٨/ ٨٣. بأوله ولم يسق لفظه، وباب (٧٤) قدوم الأشعريين وأهل اليمن، حديث رقم (٤٣٨٦) ٨/ ٩٨ بأوله.

والترمذي في كتاب المناقب، باب (٧٤) مناقب بني ثقيف وبني حنيفة، حديث رقم (٣٩٥١) ٥/ ٧٣٢ ـ ٧٣٣. بأوله ولم يسق لفظه.

وأحمد في المسند ٤/ ٤٢٦ ـ ٤٣٣ ـ ٤٣٦ مقتصراً على

أوله، ولم يسق لفظ بدء الخلق والعرش.

وابن أبي شيبة في المصنف، حديث رقم (٣٢٥٠٢) ٦/ ٤١٤ مختصراً.

وابن حبان في صحيحه (٧٢٩٢) ١٦/ ٢٨١ ـ ٢٨٢ بأوله ولم يسق لفظ العرش وبدء الخلق.

والدارمي في الرد على الجهمية، حديث رقم (٣٩) ص ٢٨ وساقه بتمامه، إلا أنه لم يسق لفظ العرش وبدء الخلق.

والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٤٩٦) ١٨/ ٢٠٣ بأوله ولم يسق لفظ بدء الخلق والعرش.

٢ ـ المسعودي، عن جامع به:

رواه النسائي في سننه الكبرى، في كتاب التفسير، سورة هود، باب (١٨٣) قوله تعالى: ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٧]، حديث رقم (١١٢٤٠) ٦/ ٣٦٣ ولفظه: «كان الله ولا شيء غيره، وكان عرشه على الماء فكتب في الذكر كل شيء، ثم خلق سبع سموات».

والراوي هنا عن المسعودي: خالد بن الحارث روى عنه قبل الاختلاط. انظر الاغتباط ص ٧٥.

والطبري في تفسيره، ٧/٦ بطوله ولفظه: «كان الله ولا

شيء غيره. .» والراوي عنه النضر بن شميل روى عن المسعودي قبل الاختلاط. وفي تاريخه ١/ ٣٨، وابن خزيمة في كتاب التوحيد، حديث رقم (٥٩٣) ٢/ ٨٨٤ مطولاً بالقصة، ولفظه: «كان الله ولا شيء غيره. . .».

قلت: سند هذه الطريق صحيحة؛ لأن المسعودي روى عنه هنا من سمع منه قبل اختلاطه، كما سبق بيانه، وقد اختلف على المسعودي، كما سيأتي.

٣ ـ سفيان بن عيينة، عن جامع به:

رواه ابن منده في التوحيد، حديث رقم (٨) ١/ ٨٢ ـ ٨٣ بطوله ولفظه: «كان الله ـ عزّ وجلّ ـ ولم يكن شيء غيره. . .» الحديث.

٤ ـ الأعمش، عن جامع بن شداد:

وقد روى عنه جمع بلفظ: «قبله»، وروى عنه جمع آخر بلفظ: «غيره»:

أ ـ فمن روى عنه لفظ «قبله»:

١ ـ أبو حمزة السكري:

رواه البخاري في كتاب التوحيد، باب (٢٢) ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾، حديث رقم (٧٤١٨)

١٣/ ٤٠٣ بطوله، ولفظه: «كان الله ولم يكن شيء قبله».

وابن منده في التوحيد، حديث رقم (٩) ص ٨٣ ـ ٨٤ بطوله، ولفظه: «كان الله ـ عز وجل ـ ولم يكن شيء قبله».

٢ ـ محمد بن خازم:

رواه أبو الشيخ في العظمة، حديث رقم (٢٠٧) ٢/ ٥٧١ ـ ٥٧٢ بلفظ: «كان الله ـ عز وجل ـ على العرش، وكان قبل كل شيء. . .» الحديث.

٣ ـ شيبان:

رواه ابن منده في التوحيد، حديث رقم (١٠) ١/ ٨٥ مختصراً ولم يسق لفظه.

وابن حبان في صحيحه، حديث رقم (٦١٤٢) ١٤/ ١٠ ـ ١١ مطولاً بلفظ: «كان الله ولم يكن شيء قبله» اهـ.

والبيهقي في سننه ٩/ ٢ بطوله، بلفظ: «كان الله ـ عز وجل ـ ولم يكن شيء قبله».

ب ـ وممن روى عنه لفظة: «غيره»:

١ ـ أبو إسحاق الفزاري:

رواه الدارمي في الرد على الجهمية، حديث رقم (٤٠) ص ٢٨ ـ ٢٩ بطوله، ولفظه: «كان الله ولم يكن شيء غيره».

وابن منده في التوحيد، حديث رقم (٨) ١/ ٨٢ ـ ٨٣ بطوله ولفظ: «كان الله ـ عزّ وجلّ ـ ولم يكن شيء غيره..» الحديث.

والطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٥٠٠) ١٨/ ٢٠٤ ـ ٢٠٥ بلفظ: «كان الله تعالى لم يكن شيء غيره».

والآجري في الشريعة ص ١٧٦ ـ ١٧٧ بلفظ: «كان الله ـ عز وجل ـ ولم يك شيء».

والأصبهاني في الحجة، حديث رقم(٤٤) ٢/ ٨٥ ـ ٨٦ بطوله، ولفظه: «كان الله ـ عز وجل ـ ولم يكن شيء غيره» اهـ.

والبيهقي في الاعتقاد ص ٩١ ـ ٩٢ ولفظه: «كان الله ـ عزّ وجلّ ـ ولم يكن شيء غيره». وفي الأسماء والصفات ٢/ ١١٥ بطوله، ولفظه: «كان الله ـ عز وجل ـ ولم يكن شيء غيره».

٢ ـ غياث:

رواه البخاري في كتاب بدء الخلق، باب (١) ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ﴾، حديث رقم (٣١٩١) ٦/ ٢٨٦ بطوله وفيه: «كان الله ولم يكن شيء غيره».

والبيهقي في سننه ٩/ ٢ ـ ٣ مختصراً، ولفظه: «كان الله

ولم يكن شيء غيره».

٣ ـ أبو بكر بن عياش:

رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٤٩٧) ١٨/ ٢٠٣ ـ ٢٠٤ ولفظه: «كان الله ـ عزّ وجل ـ ولا شيء غيره».

وابن أبي شيبة في العرش، حديث رقم (١) ص ٥١ ولفظه: «كان الله ولا شيء غيره».

٤ ـ محمد بن عبيد:

رواه الطبراني في المعجم الكبير، حديث رقم (٤٩٨) ١٨/ ٢٠٤ بطوله، ولفظه: «كان الله، ولم يكن غيره».

وحديث رقم (٤٩٩) ١٨/ ٢٠٤ ولم يسق لفظه.

٥ ـ عبد الملك بن معن:

رواه ابن حبان في صحيحه، حديث رقم (٦١٤٠) ١٤/ ٧ بطوله، بلفظ: «كان الله وليس شيء غيره» الحديث.

وفي الباب عن:

بريدة:

رواه الحاكم في المستدرك ٢/ ٣٤١، وأبو الشيخ في العظمة، حديث رقم (٢٠٨) ٢/ ٥٧٤ ـ ٥٧٥ عن يزيد بن

هارون، عن المسعودي، عن جامع بن شداد، عن ابن بريدة، عن بريدة مرفوعاً: «كان الله لا شيء غيره. .» الحديث.

فيزيد بن هارون، رواه عن المسعودي، فذِكر بريدة بدل عمران. ويزيد ممن روى عن المسعودي بعد اختلاطه. قاله ابن نمير. انظر الاغتباط ص ٧٦. فترجّح رواية خالد بن الحارث، وروح بن القاسم، والنضر بن شميل لأنهم رووا عن المسعودي قبل اختلاطه فيرجع الحديث إلى حديث عمران بن حصين، والله تعالى أعلم بالصواب.

ورواه أبو الشيخ برقم (٢١١) ٢/ ٥٧٧ ـ ٥٧٨ عن عبد الله بن يزيد المقرىء، عن المسعودي، عن جامع، عن رجل، عن بريدة. ولم اهتد هل عبد الله روى عن المسعودي قبل الاختلاط. وعلى كل حال رواية الثلاثة ـ أقوى ـ الذين رووا عن المسعودي، فقالوا: عمران بن حصين.

مسألة الحوادث التي لا أول لها

زعم بعض الناس أنّ شيخ الإسلام يقول بقدم نوع العالم، وهذا محض افتراء على شيخ الإسلام؛ لأن أقواله في هذه المسألة واضحة في جميع كتبه، وخصوصاً في هذه الرسالة.

حتى أن الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله تعالى ـ نقل عن غيره كلاماً في ذلك، فقال في فتح الباري ١٣/ ٤١٠: «.. وهي أصرح في الرد على مَنْ أثبت حوادث لا أول لها من رواية الباب، وهي من مستشنع المسائل المنسوبة لابن تيمية» اهـ.

ومن كلام الحافظ ابن حجر نتبين أنه نقل هذا الكلام عن غيره، بقوله: المنسوبة، ولم يرها في كتبه، بل نقلها عن غيره، وهذا النقل يحتاج إلى تدقيق؛ لأنّ أصحاب الهوى يفترون كثيراً عليه، وعلى غيره من أئمة العلم ومصابيح الدجى.

ولقد كتب الفاضل مراد شكري رسالة في «دفع الشبه الغوية عن شيخ الإسلام ابن تيمية» وكتب الفصل الأول في بيان هذه المسألة مسألة الحوادث التي لا أول لها، وردّ على الذين اتهموا

شيخ الإسلام بأنه يقول بقدم نوع العالم، وانتقد كلام الحافظ ابن حجر، ومما قاله[1]:

وتفصيل الكلام على قول الحافظ ـ رحمه الله ـ من وجوه كما يلي:

الأول: ظاهر كلام الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ أنّ المسألة قول لابن تيمية وحده، وأنه متفرّد بها، وقد قدّمت لك النقول الأصلية أنّ المسألة محلّ اختلاف بين العلماء، ويكفي في ذلك ما نقلته من شرح المنهاج للإسنوي فيما نقلت، فأين الشناعة؟!!

الثاني: المتأمل كلام الحافظ يرى أنه جعل الشناعة في كلام ابن تيمية حاصلة من الظن أنّ إثبات حوادث لا أول لها ينافي حديثاً: «كان الله قبل كل شيء».

قال الحافظ: «وفي رواية أبي معاوية: «كان الله قبل كل شيء» وهي بمعنى: «كان الله ولا شيء معه» وهي أصرح في الرد على من أثبت حوادث لا أول لها من رواية الباب، وهي من مستشنع المسائل المنسوبة لابن تيمية».

فهذا الحافظ رحمه الله يتوهّم أنّ إثبات هذه الحوادث

(١) دفع الشبه الغوية ص ٥٦ ـ ٥٨.

يخالف حديث: «كان الله قبل كل شيء»، أو: «لم يكن شيء معه».

والناظر فيما تقدم من هذا المبحث يرى أنّ شيخ الإسلام مثبتٌ أولية الله على كل شيء، ولا بد أن يكون الحادث بعده قطعاً، وفيما نقلته من النقول ما يكفي ويشفي، ولا مانع أن يتوهّم الحافظ ابن حجر شيئاً خطئاً، أو أن يخطىء في مسألة، فهو ليس معصوماً، والمسألة ليست من مسائل التوحيد أصلاً إلاّ عند من لا يدري، فمن رتّب عليها تضليلاً أو تفسيقاً بناء على كلام ابن حجر فقد خالف ابن حجر الذي يصف شيخ الإسلام بـ«الحافظ العلامة» ـ كما سيأتي ـ.

الوجه الثالث: لا يختلف عاقلان أن مسألة حوادث لا أول لها مسألة كلامية من مواضيع علم الكلام.

ومن طالع ترجمة الحافظ ابن حجر ـ رحمه الله ـ عرف يقيناً «أنه كان اشتغاله بعلم الحديث هو الغالب عليه ـ فلا يضرّه أن يهم في مسائل من علم الكلام فضلاً عن مسألة واحدة، ولا يغضّ من قدره أبداً، مع أنّ شيخ الإسلام ينبّه أنّ هذه المسألة تنبّه إليها الحذّاق من علماء الكلام، وليس هو متفرّداً فيها، فقد قدّمنا كلام المتكلمين الأكابر ممن قال بها، ومن نقلها، وجميعهم يعلمون أنها خلافية، وهذا كاف في دحر التشنيع على

القائل بها.

الوجه الرابع: قال الحافظ ابن حجر في الفتح ٦/ ٢٨٩ كتاب بدء الخلق: «وقع في بعض الكتب في هذا الحديث زيادة: «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان». وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث، نبّه على ذلك العلامة تقي الدين ابن تيمية» انتهى.

وقال الحافظ في التلخيص الحبير ٣/ ١٧٩: «كتاب قسم الصدقات عن حديث: «الفقر فخري وبه افتخر»: وهذا الحديث سئل عنه الحافظ ابن تيمية فقال: إنه كذب، لا يعرف في شيء من كتب المسلمين المروية».

فهو هنا يصفه بالحافظ والعلامة، فاتعظوا يا مستشهدين بكلامه، وزنوا بالقسطاس المستقيم، وهل يستشهد بكلام الحافظ ابن حجر في علم الكلام الذي ليس له فيه مصنف، ويترك الاستشهاد بكلامه في علم الحديث وهو الحافظ فيه؟!!

الوجه الخامس: كلّ قول ـ مَنْ كان قائله فليكن ـ في حق أي مسلم كان مَنْ يكون هو شهادة، يطالب فيه القائل بإقامة البينة وإذا عدمت البينة سقط القول تباعاً لذلك، وقول الحافظ مبني على مصادقة الحديث، وهو توهم ـ كما فصلت ـ فالاستشناع مردود، ومستشنع؛ لأنه بغير بيّنة، وهذا بيّن» اهـ.

أقوال شيخ الإسلام في مسألة أنّ العالم حادث:

حتى يزداد الأمر وضوحاً وبياناً نزيد القارىء بعض النقولات من كتب شيخ الإسلام التي يوضح فيها أنّ كلّ ما سوى الله محدث مخلوق مربوب لله سبحانه وتعالى:

قال رحمه الله في منهاج السنة ١/ ١٠٥: «وهذا برهان مستقل على أنّ كل ما سوى الله محدث، كائن بعد أن لم يكن، وأنه سبحانه خالق كل شيء بعد أن لم يكن شيئاً، فسبحان من انفرد بالبقاء والقدم، وألزم ما سواه الحدوث بعد العدم» اهـ.

وقال أيضاً: ١/ ٢٢٥: «.. ومع هذا يمتنع أن يقال بقدم شيء من العالم؛ لأنه لو كان قديماً لكان مبدعه موجباً بذاته يلزم موجبه ومقتضاه، فإذا كان الخالق فاعلاً بفعل يقوم بنفسه بمشيئته واختياره امتنع أن يكون موجباً بذاته لشيء من الأشياء، فامتنع قدمُ شيء من العالم» اهـ.

وقال في الصفدية ١/ ٢١: «وهذا مما يتبين به بطلان قولهم في قدم العالم، وبيان أنّ كل ما سوى الله حادث بعد أن لم يكن».

وقال أيضاً ـ ١/ ١٤٧: «وأن الله خالق كل شيء وربّه ومليكه، ولم يجعل سوى الله قديماً معه، بل كل ما سواه

محدث، كان بعد أن لم يكن» اهـ.

وقال في نقد مراتب الاجماع ص ٢٢٤: «وأن كل ما سوى الله مخلوق كائن بعد أن لم يكن، وليس معه شيء قديم بقدمه، بل ذلك ممتنع عقلاً، باطل شرعاً» اهـ.

وقال في هذه الرسالة ص ٣٠: «**قوله: لم يزل متكلماً: المراد وصفه بدوام الفعل لا أنّ معه مفعولاً من المفعولات بعينه، وإذا ظن الظان أن هذا يقتضي قدم شيء معه كان من فساد تصوره**».

وقال: «إذ كان كلّ مخلوق فله ابتداء».

فبين رحمه الله أنّ مَنْ ينسب إليه القول بقدم العالم فهذه النسبة صادرة من مفسد تصوره فاسد، وقلبه مشحون بالهوى والعصبية والخيانة لله ولرسوله ولكتابه ولأئمة المسلمين وعامتهم[1].

لأنه لا يعلم أحد قرّر نقض هذا القول السيء مثله رحمه الله تعالى.

---

(١) وانظر للتوسعة: دفع الشبه الغوية ص ١١ ـ ١٢.

أما عن مسألة الحوادث التي لا أول لها:

فقد ذكر الخلاف فيها أهل العلم في كتبهم. قال شارح الطحاوية بعد أن ذكر أقوال أهل الكلام في هذه المسألة[1]: «فالحاصل أنّ نوع الحوادث هل يمكن دوامها في المستقبل والماضي، أم لا؟

أو في المستقبل فقط؟

أو في الماضي فقط؟

فيه ثلاثة أقوال معروفة لأهل النظر من المسلمين وغيرهم:

أضعفها: قول مَنْ يقول: لا يمكن دوامها لا في الماضي ولا في المستقبل، كقول جهم بن صفوان، وأبي الهذيل العلاف.

وثانيها: قول مَنْ يقول: يمكن دوامها في المستقبل دون الماضي، كقول كثير من أهل الكلام ومَنْ وافقهم من الفقهاء وغيرهم.

والثالث: قول مَنْ يقول: يمكن دوامها في الماضي والمستقبل، كما يقول أئمة الحديث، وهي من المسائل الكبار، ولم يقل أحد: يمكن دوامها في الماضي دون المستقبل.

---

(١) شرح الطحاوي ص ٦٧ ـ ٦٨ (طبع شاكر).

ولا شك أن جمهور العالم من جميع الطوائف يقولون: إنّ كلّ ما سوى الله تعالى مخلوق كائن بعد أن لم يكن، وهذا قول الرسل وأتباعهم من المسلمين واليهود والنصارى وغيرهم.

ومن المعلوم بالفطرة أنّ كون المفعول مقارناً لفاعله لم يزل ولا يزال معه ممتنع محال، ولما كان تسلسل الحوادث في المستقبل لا يمنع أن يكون الرب سبحانه هو الآخر الذي ليس بعده شيء، فكذا تسلسل الحوادث في الماضي لا يمنع أن يكون سبحانه وتعالى هو الأول الذي ليس قبله شيء، فإنّ الرب سبحانه وتعالى لم يزل ولا يزال يفعل ما يشاء، ويتكلّم إذا شاء» اهـ.

فالحوادث التي لا أول لها هي تفسير لكون الله فاعلاً خالقاً في الأزل، وقد فسّرها بذلك شيخ الإسلام نفسه في هذه الرسالة[1]، فقال: «قوله: لم يزل متكلماً: المراد وصفه بدوام الفعل، لا أن معه مفعولاً من المفعولات بعينه، وإذا ظن الظانّ أن هذا يقتضي قدم شيء معه كان من فساد تصوّره» اهـ.

فمن يطعن بشيخ الإسلام بعد هذا، بأنه يقول بقدم نوع العالم، أو بقدم العالم، فهو مفتر ضال مضلّ، أعمى الله بصره.

---

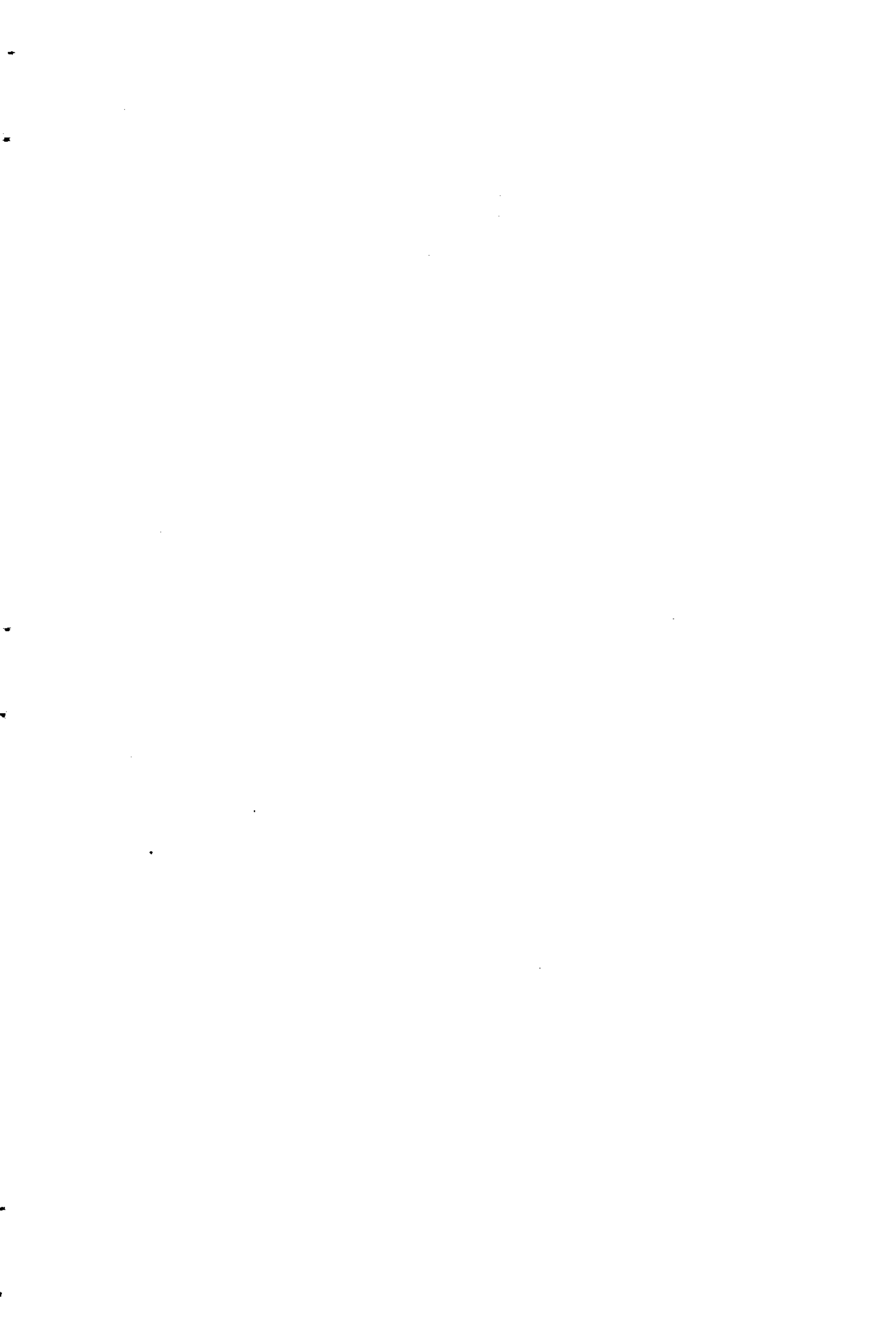
(١) انظر ص ٨٤.

فشيخ الإسلام لم يتفرّد بالقول بأنّ الله لم يزل خالقاً، وأنّ هذا لا يعني القول بقدم العالم.

وانظر زيادة توسيع في هذه المسألة في كتاب دفع الشبه الغوية[1] فقد سرد أقوال أهل الحديث القائلين بهذه المسألة. والله تعالى الموفق.

---

(١) انظر دفع الشبه الغوية ص ٢٩ ـ ٤٣ للأهمية، وانظر «باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي» ص ١٥٣ ـ ١٦٩، ومنهاج السنة النبوية ١/ ٣٧ ـ ٥٣، ومجموعة الرسائل والمسائل ٢/ ٣٨ ـ ٣٩.



ترجمة
شيخ الإسلام ومفتي الأنام
ابن تيمية رحمه الله تعالى

حينما نريد للقلم أن يسطّر ترجمة لشيخ الإسلام رحمه الله تعالى، وهو الجبل الأشم من جبال العلم، فله قدم راسخة في العلم، وهو قدوة في العلم والعمل، لا بد من أن يتعب في تجلية أهم الأمور التي ميزت هذا العلامة، وجعلته مبرزاً في شتى فنون العلم، حتى أصبح بجدارة شيخاً للإسلام، وأصبح هذا اللقب مشتهراً به، وعَلَماً عليه.

إنه شيخ الإسلام، ومفتي الأنام، قامع البدعة، وناصر السنّة: بصدقه، وإخلاصه، وعبادته، وزهده، وورعه، وجهده في تحصيل العلم، والعمل به، والدعوة إليه بجرأة وإقدام . . .

صفات كثيرة جعلته أهلاً لتوفيق الله له بأن يصبح مرجعاً لجميع أهل العلم من بعده: القاصي والداني، الموالف والمخالف، كلهم استقوا من علمه، ونهلوا من بحره، وشربوا

من ينابيعه الصافية.

ولقد حظي من أهل العلم بالتوقير والاحترام، والاهتمام، فسطّروا في مناقبه وآثاره المصنفات، وتحلّت بذكره التواريخ والمطولات[1].

مولده ومنشؤه:

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية في العاشر من شهر ربيع الأول سنة ٦٦١ هـ في حرّان، وهي بلدة تقع في الشمال الشرقي من بلاد الشام في جزيرة ابن عمرو بين دجلة والفرات.

وتحوّل به أبوه من حرّان إلى دمشق سنة ٦٦٧ هـ عند استيلاء التتار على البلاد، فنشأ فيها، وتلقّى على أبيه وعلماء عصره العلوم المعروفة في تلك الأيام.

استطاع شيخ الإسلام ابن تيمية أن يلمّ بفنون الثقافة في عصره في وقت مبكر، وكان ذا حافظة خارقة، فهو يحفظ كلَّ ما يقع تحت عينيه، وقد حدّثوا في ترجمته بالأعاجيب من ذلك.

وكان ـ على حداثة سنّه ـ حريصاً على الوقت جداً لا يضيع منه شيئاً أبداً، ويعزف عما ينصرف إليه غيره من الصبيان، وما

---

(١) سيأتي ذكر بعض هذه المصنفات إن شاء الله تعالى.

زال يتقدّم حتى صار إمام عصره، وشيخ الإسلام في زمانه.

أوصافه الجسمية والخلقية:

وأما أوصافه الجسمية والخلقية، فقد ذكرها الحافظ الذهبي، فقال: وكان الشيخ أبيض، أسود الرأس واللحية، قليل الشيب، شعره إلى شحمة أذنيه، وكأنّ عينيه لسانان ناطقان، وكان ربعة من الرجال، بعيد ما بين المنكبين، جهوري الصوت، فصيحاً، سريع القراءة.

وقال: تعتريه حدة، لكن يقهرها بالحلم، وإليه المنتهى في فرط الشجاعة، والسماحة، وقوة الذكاء، ولم أرَ مثله في ابتهاله، واستغاثته بالله تعالى، وكثرة توجّهه»[1] اهـ.

عبادته، وزهده، وتواضعه:

لم ير مثل شيخ الإسلام في ابتهاله واستغاثته بالله تعالى، وكثرة توجّهه، كما قال الإمام الذهبي.

وقال: ما علمناه ـ والله ـ إلاّ مؤمناً محافظاً على الصلاة، والوضوء، وصوم رمضان، معظّماً للشريعة ظاهراً وباطناً.

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام من ذيل تاريخ الإسلام ص ٨٦ (التوكل)، وانظر الدرر الكامنة ١/ ١٦١.

لا يؤتى من سوء فهم، بل له الذكاء المفرط، ولا من قلة علم، فإنه بحر زخّار، بصير بالكتاب والسنّة، عديم النظير في ذلك.

ولا هو بمتلاعب بالدين، فلو كان كذلك؛ لكان أسرع شيء إلى مداهنة خصومه، وموافقتهم، ومنافقتهم. ولا هو يتفرّد بمسائل بالتشهّي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتج لها بالقرآن أو بالحديث، أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث أسوة من تقدّمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب فله أجران.

وكان قوّالاً بالحق، نهّاءً عن المنكر، لا تأخذه في الله لومة لائم، ذا سطوة وإقدام، وعدم مداراة الأغيار.

هذا مع ما كان عليه من الكرم الذي لم أشاهد مثله قط، والشجاعة المفرطة التي يضرب بها المثل، والفراغ عن ملاذ النفس من اللباس الجميل، والمأكل الطيب، والراحة الدنيوية.

شيوخه:

سمع شيخ الإسلام من عدد كثير من العلماء، حتى قال الإمام الذهبي عن ذلك: وأكثر وبالغ. فسمع من أحمد بن

عبد الدائم المقدسي، وإسماعيل بن أبي اليسر التنوخي، والكمال عبد الرحيم بن عبد الملك بن يوسف بن قدامة المقدسي المسند. . . وخلق كثير، وشيوخه الذين سمع منهم أكثر من مائتي شيخ.

وهذا كله وهو ابن بضع عشرة سنة، فانبهر أهل دمشق من فرط ذكائه، وسيلان ذهنه، وقوة حافظته، وسرعة إدراكه[١].

تلاميذه:

ومن أشهر تلاميذه، العالم الرباني، وارث علومه، ابن قيم الجوزية، وقد حبس معه في قلعة دمشق.

ومنهم الإمام الذهبي، والحافظ ابن كثير، وابن عبد الهادي، وشرف الدين أبو العباس أحمد بن الحسين المشهور بقاضي الجبل، وابن الوردي، وابن مفلح وغيرهم.

سعة علمه ومكانته:

قال الحافظ الذهبي[٢]: ونظر في الرجال والعلل، وصار

---

(١) انظر ترجمة شيخ الإسلام للذهبي ص ٨٠ ـ ٨١، والعقود الدرية ص ٤، والبداية والنهاية ١٤/ ٥٤.

(٢) ترجمة شيخ الإسلام للذهبي ص ٨٢ ـ ٨٣.

من أئمة النقد، ومن علماء الأثر، مع التدين والنبالة، ومع الذكر والصيانة.

ثم أقبل على الفقه ودقائقه وقواعده وحججه، والإجماع والاختلاف، حتى كان يقضى منه العجب، إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف، ثم يستدل ويرجّح ويجتهد، وحقّ له ذلك؛ فإنّ شروط الاجتهاد كانت قد اجتمعت فيه. فإنني ما رأيتُ أحداً أسرع انتزاعاً للآيات الدالة على المسألة التي يوردها منه، ولا أشدّ استحضاراً لمتون الأحاديث وعزوها إلى الصحيح أو إلى المسند، أو إلى السنن منه، كأنّ الكتاب والسنّة نصب عينيه، وعلى طرف لسانه، بعبارة رشيقة، وعين مفتوحة، وإفحام للمخالف.

وكان آية من آيات الله تعالى في التفسير، والتوسّع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسين. وأما أصول الديانة ومعرفتها، ومعرفة أحوال الخوارج والروافض والمعتزلة وأنواع المبتدعة، فكان لا يشقّ فيه غباره، ولا يلحق شأنه.

مؤلفاته:

لقد عرف شيخ الإسلام بكثرة التأليف والتصنيف، وليس عجيباً أن تصل مؤلفاته إلى خمسمائة مصنف، فقد كان كما يذكر ابن عبد الهادي: سريع الكتابة وكثيراً ما كان يكتب من

حفظه من غير نقل.

ومن مصنفاته:

جواب أهل العلم والإيمان، ودرء تعارض العقل والنقل، والتوسل والوسيلة، والفرقان، والاستقامة، والإيمان، ومنهاج السنة النبوية، والرد على المنطقيين، والحسبة في الإسلام، والسياسة الشرعية، والأمر بالمعروف... وغيرها الكثير.

ثناء الأئمة عليه:

لقد أثنى كثير من الأئمة والعلماء على شيخ الإسلام ولقّبوه بشيخ الإسلام، وأفردوا مناقبه بالتصانيف، وتحلّت بذكره التواريخ والتآليف.

ولم ينتقص منه إلاّ مَنْ جهل مقداره وخطره، ومَنْ جهل شيئاً أنكره. ولقد انصف العلامة بهاء الدين السبكي[1] حيث يقول لبعض من ذكر له الكلام في ابن تيمية، فقال:

والله يا فلان، ما يبغض ابن تيمية إلاّ جاهل أو صاحب هوى، فالجاهل لا يدري ما يقول، وصاحب الهوى يصدّه هواه عن الحق بعد معرفته به.

---

(١) الشهادة الزكية ص ٥٨.

واعلم ـ أيدّك الله ـ أن كثيراً من الأئمة أفردوا مناقبه في تصانيف مشهورة، ومن ذلك: «الرد الوافر» لابن ناصر الدين.

ثم لخص هذا الكتاب الإمام مرعي الكرمي في «الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية» وله كتاب «الكواكب الدرية» أيضاً.

وألف عمر البزار «الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية».

ولابن شيخ الحزاميين رسالة صغيرة وقد طبعت بعنوان: «التذكرة والاعتبار والانتصار للأبرار في الثناء على شيخ الإسلام والوصاية به».

وكذلك ترجم الإمام الذهبي في ذيله لتاريخ الإسلام ترجمة حافلة.

وكذلك فعل الحافظ ابن حجر في «الدر الكامنة». ومن هذه الأقوال ما قاله فيه الإمام الذهبي حيث قال: الشيخ، الإمام، العالم، المفسّر، المجتهد، الحافظ، المحدث، شيخ الإسلام، نادرة العصر، ذو التصانيف الباهرة، والذكاء المفرط.

وقال الحافظ المزي: ما رأيت مثله، ولا رأى هو مثل نفسه، وما رأيت أحداً أعلم بكتاب الله وسنة ورسول الله ﷺ ـ ولا أتبع لهما منه.

وقال فيه الحافظ ابن رجب: الإمام، الفقيه، المجتهد، المحدّث، الحافظ، المفسّر، الأصولي، الزاهد، شيخ الإسلام، وعلم الأعلام.

وقال ابن شيخ الحزاميين فيه: فوالله، ثم والله، ثم والله، لم يُرَ تحت أديم السماء مثل شيخكم: علماً، وعملاً، وحالاً، وخلقاً، واتباعاً، وكرماً، وحلماً في حق نفسه، وقياماً في حق الله عند انتهاك حرماته.

وقال: إذا رأيتم طاعناً على صاحبكم - يعني به شيخ الإسلام - فافتقدوه في عقله أولاً، ثم في فهمه، ثم في صدقه، ثم في سنّه.

وفاتــه:

أُدخل شيخ الإسلام السجن آخر مرة في شعبان سنة ٧٢٦ هـ واعتقل بالقلعة، ومكث في السجن إلى أن توفاه الله في ٢٦ ذي القعدة سنة ٧٢٨ هـ وقال الذهبي: في ليلة الاثنين، العشرين من ذي القعدة. وصلي عليه بجامع دمشق عقيب الظهر، وامتلأ الجامع بالمصلين.

وكانت جنازته عظيمة جداً، وأقل ما قيل في عداد من شهده: خمسون ألفاً، ودفن إلى جانب أخيه شرف الدين في

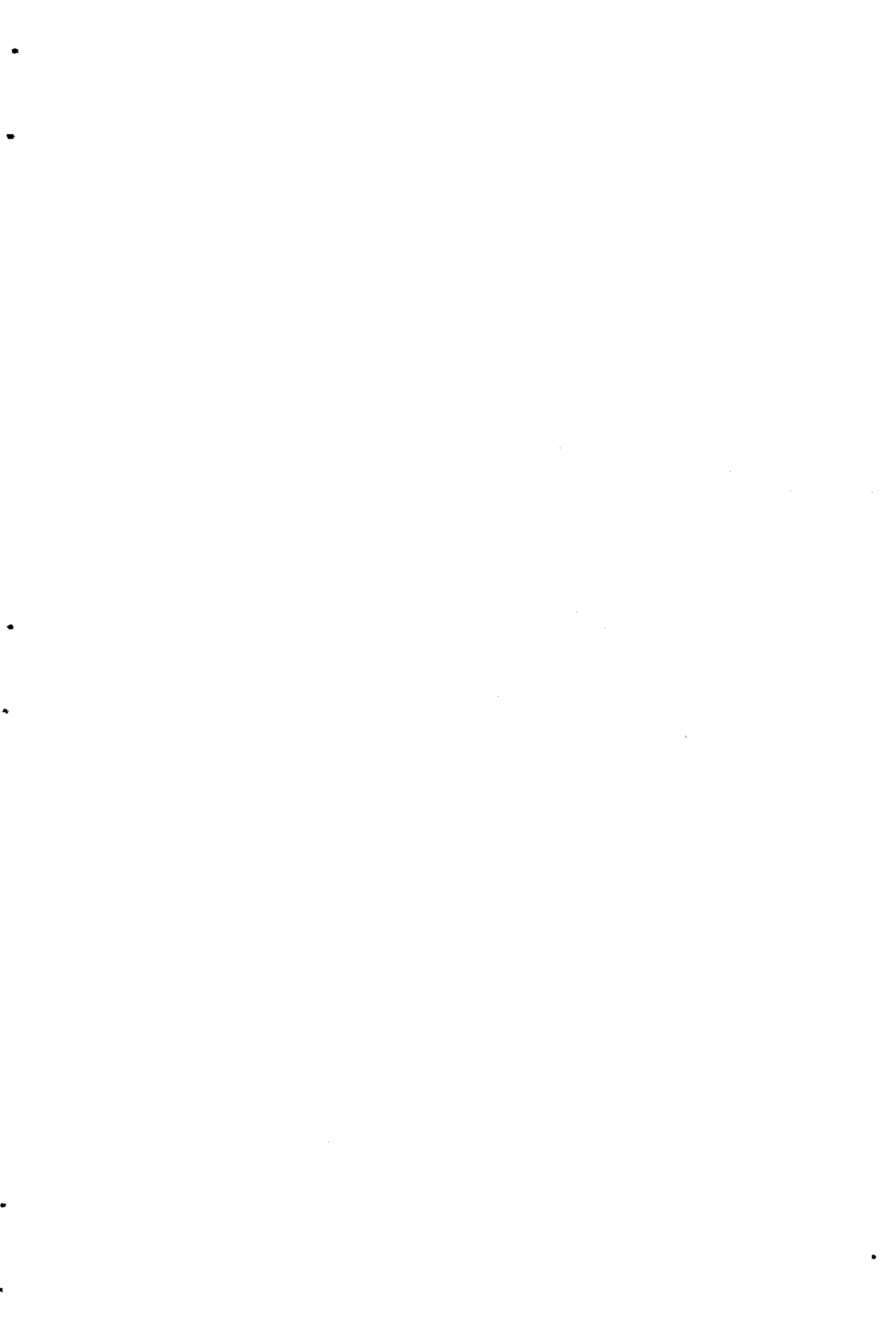
مقابر الصوفية.

رحمه الله رحمة واسعة شاملة، فقد كان إماماً في حياته، وعظيماً بعد مماته، وجزاه عن الدين والمسلمين خير ما جازى داعية حق وصدق مجاهد عن دعوته وجهاده، والحمد لله رب العالمين.

نص رسالة
شرح حديث
عمران بن حصين

«كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء، وخلق السموات والأرض»

لشيخ الإسلام ابن تيمية
رحمه الله تعالى



وقال شيخ الإسلام رحمه الله

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلّ له. ومَنْ يضلل فلا هادي له.

ونشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له.

ونشهد أنّ محمداً عبده ورسوله صلى الله عليه وسلَّم تسليماً.

فصل

[نص الحديث]

في صحيح البخاري وغيره من حديث عمران بن حُصَين ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ ـ قال: **«يا بني تميم! اقبلوا البشرى»**.

قالوا: قد بشّرتنا فأعطنا. فأقبل على أهل اليمن فقال: «**يا أهل اليمن! اقبلوا البشرى؛ إذ لم يقبلها بنو تميم**».

فقالوا: قد قبلنا يا رسول الله.

قالوا: جئناك لنتفقّه في الدين.

ولنسألك عن أول هذا الأمر؟

فقال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**».

وفي لفظ: «**معه**»، وفي لفظ: «**غيره**». «**وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء، وخلق السموات والأرض**».

وفي لفظ: «**ثم خلق السموات والأرض**».

ثم جاءني رجل فقال: أدرك ناقتك، فذهبت، فإذا السراب ينقطع دونها، فوالله لوددت أني تركتها ولم أقم.

[شرح الحديث]

قوله: «كتب في الذكر»: اللوح المحفوظ، كما قال: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥] أي: من بعد اللوح المحفوظ[١]. يسمى ما يكتب في الذكر ذِكْراً، كما يسمى ما يكتب فيه كتاباً، كقوله عزّ وجلّ: ﴿ إِنَّهُ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾ [الواقعة: ٧٨].

[أقوال الناس في معنى هذا الحديث]:

والناس في هذا الحديث على قولين:

---

(١) قال سعيد بن جبير ومجاهد: الزبور: جميع الكتب المنزلة، والذكر أم الكتاب الذي عنده، والمعنى: من بعد ما كتب ذكره في اللوح المحفوظ.
وقال ابن عباس والضحاك: الزبور: التوراة، والذكر: الكتب المنزلة من بعد التوراة، وقال الشعبي: الزبور: كتاب داود، والذكر: التوراة.
وقيل: الزبور: زبور داود، والذكر: القرآن، وبعد بمعنى قبل.
انظر معالم التنزيل ٣/ ٢٧١، وزاد المسير ٥/ ٣٩٧.

١ ـ منهم مَنْ قال: إنّ مقصود الحديث إخباره بأنّ الله كان موجوداً وحده، ثم إنه ابتدأ إحداث جميع الحوادث، وإخباره بأنّ الحوادث لها ابتداء بجنسها، وأعيانها مسبوقة بالعدم، وأنّ جنس الزمان حادث لا في زمان. وجنس الحركات والمتحرّكات حادث. وأنّ الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل شيئاً من الأزل إلى حين ابتداء الفعل: ولا كان الفعل ممكناً.

ثم هؤلاء على قولين:

أ ـ منهم مَنْ يقول: وكذلك صار متكّلماً بعد أنْ لم يكن يتكلّم بشيء، بل ولا كان الكلام ممكناً له.

ومنهم مَنْ يقول: الكلام أمر يوصف به بأنه يقدر عليه، لا أنه يتكلّم بمشيئته وقدرته، بل هو أمر لازم لذاته بدون قدرته ومشيئته.

ثم هؤلاء منهم مَنْ يقول: هو المعنى دون اللفظ المقروء، عبّر عنه بكلّ من التوراة والإنجيل والزبور والفرقان.

ومنهم مَنْ يقول: بل هو حروف وأصوات لازمة لذاته، لم تزل ولا تزال، وكلّ ألفاظ الكتب التي أنزلها، وغير ذلك.

والقول الثاني في معنى الحديث: إنه ليس مراد الرسول هذا: بل إنّ الحديث يناقض هذا، ولكن مراده إخباره عن خَلْق

هذا العالم المشهود الذي خلقه الله في ستة أيام ثم استوى على العرش، كما أخبر القرآن العظيم بذلك في غير موضع، فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ ﴾ [هود: ٧].

وقد ثبت في صحيح مسلم، عن عبد الله بن عمرو؛ عن النبي ﷺ أنه قال: «**قدّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[١] فأخبر ﷺ ـ أن تقدير خَلْق هذا العالم المخلوق في

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣)، والترمذي (٢١٥٦)، وأحمد ٢/ ١٦٩، وعبد بن حميد (٣٤٣)، والطبري في تفسيره (٦٦٥٧)، وعبد الله في السنة (٨٤٢) ٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٨، والدارمي في الرد على الجهمية (٢٥٤) ص ١٤٢ ـ ١٤٣، و(٢٦٢) ص ١٤٧، واللالكائي (١٠٢٥ ـ ١٠٢٦)، وابن حبان (٦١٣٨)، والطبراني (٨٠ ـ ٨١) ص ٣٥ ـ ٣٦ (بقية الجزء ١٣). والبيهقي في الأسماء والصفات ٢/ ١١٤ ـ ١١٥، وفي الاعتقاد، وابن بطة في الإبانة، الكتاب الثاني، حديث رقم (١٣٤٥ ـ ١٣٤٦ ـ ١٣٤٧) ١/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤، وابن أبي زمنين في أصول السنة (١٢٠) ص ٢٠٠، وابن منده في التوحيد (١٢ ـ ١٣ ـ ٣٢٧)، والحجة في بيان المحجة (١٦) ٢/ ٣٢، والآجري في الشريعة ص ١٧٦، والفسوي ٢/ ٥١٣ ـ ٥١٤، وأبو نعيم في أخبار أصبهان ١/ ٣٢٧، والبغوي في شرح السنة (٦٧) ١/ ١٢٣، وفي تفسيره ٤/ ٢٦٥.

ستة أيام، وكان حينئذ عرشه على الماء، كما أخبر بذلك القرآن والحديث المتقدّم الذي رواه البخاري في صحيحه؛ عن عمران ـ رضي الله عنه ـ.

ومن هذا: الحديث الذي رواه أبو داود والترمذي وغيرهما، عن عبادة بن الصامت، عن النبي ﷺ ـ أنه قال: **«أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب! قال: وما اكتب؟ قال: ما هو كائن إلى يوم القيامة»**[1].

---

(١) رواه أبو داود (٤٧٠٠)، والترمذي (٢١٥٥ ـ ٣٣١٩)، وأحمد ٥/ ٣١٧، والطيالسي (٥٧٧)، والطبراني في مسند الشاميين (٥٨ ـ ٥٩ ـ ١٩٤٠)، وابن أبي عاصم في الأوائل (١ ـ ٢)، وفي السنة (١٠٢ ـ ١٠٣ ـ ١٠٤ ـ ١٠٥ ـ ١٠٧)، والبخاري في التاريخ الكبير ٣/ ٢/ ٩٢، واللالكائي (٣٥٧)، وابن بطة في الإبانة، الكتاب الثاني (١٣٦٢ ـ ١٣٦٣) ١/ ٣٣٣ ـ ٣٣٤، والديلمي في الفردوس (٢).

قلت: سنده صحيح لغيره ـ إن شاء الله تعالى ـ.

وفي الباب عن:

١ ـ ابن عمر: رواه الطبراني في مسند الشاميين (٦٧٣)، وابن أبي عاصم في السنة (١٠٦)، وابن بطة في الإبانة (١٣٦٥) ١/ ٣٣٥ ـ ٣٣٦ (الكتاب الثاني)، والآجري في الشريعة ص ١٧٥ ـ ١٧٦، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٨١.

قلت: سنده حسن ـ إن شاء الله تعالى ـ. =

فهذا القلم خلقه لما أمره بالتقدير المكتوب قبل خَلْقِ السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان مخلوقاً قبل خَلْقِ السموات والأرض. وهو أول ما خلق من هذا العالم، وخلقه بعد العرش كما دلّت عليه النصوص، وهو قول جمهور السلف. كما ذكرت أقوال السلف في غير هذا الموضع[1].

= ٢ ـ ابن عباس: رواه أبو يعلى (٢٣٢٩)، والطبراني في الأوائل (١)، وابن أبي عاصم في الأوائل (٣)، وفي السنة (١٠٨)، والدارمي في الرد على الجهمية (٢٥٣)، والطبري في تفسيره ٢٩/ ١٤، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ١٨١، وابن بطة في الإبانة (١٣٦١) ١/ ٣٣٣ (الكتاب الثاني)، والبيهقي في سننه ٩/ ٣، وفي الأسماء والصفات ٢/ ١١٧.

قلت: سنده صحيح ـ إن شاء الله تعالى ـ.

٣ ـ أبي هريرة: رواه الآجري في الشريعة ص ١٧٧، وابن بطة في الإبانة (١٣٦٤) ١/ ٣٣٥ (الكتاب الثاني)، والحكيم الترمذي في نوادر الأصول، كما في الدر المنثور ٨/ ٢٤١.

(١) اختلف العلماء في أول ما خلق الله على قولين:

الأول: أنّ العرش مخلوق قبل القلم، وأما القلم فهو أول ما خلق من هذا العالم. وهذا قول جمهور السلف، والدليل على ذلك ما ثبت في صحيح مسلم من حديث ابن عمرو، وقد سبق قريباً.

الثاني: أنّ القلم هو أول المخلوقات، كما في حديث عبادة السابق. وقد ذهب إلى هذا الإمام الطبري.

وانتصر له الشيخ الألباني في صحيحته ١/ ٤٧ ـ ٤٨، وهو قول=

والمقصود هنا: بيان ما دلّت عليه نصوص الكتاب والسنة.

= مرجوح، قال الحافظ ابن قيم الجوزية في التبيان في أقسام القرآن ص ١٨٨ ـ ١٨٩: «اختلف العلماء: هل القلم أول المخلوقات أو العرش؟ على قولين، ذكرهما الحافظ أبو يعلى الهمداني:

أصحهما: أنّ العرش قبل القلم، لما ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله ﷺ ـ: «**قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف عام، وعرشه على الماء**».

فهذا صريح أنّ التقدير وقع قبل خلق العرش، والتقدير وقع عند أول خلق القلم، لحديث عبادة هذا. ولا يخلو قوله: «**إنّ أول ما خلق الله القلم**..» إلى آخره: إما أن يكون جملة، أو جملتين. فإن كان جملة ـ وهو الصحيح ـ كان معناه أنه عند أول خلقه، قال له: اكتب، كما في لفظ: «**أولَ ما خلق الله القلم قال له: أكتب**» بنصب (أولَ)، و(القلمَ).

فإن كانا جملتين، وهو مروي برفع (أولُ) و(القلمُ)، فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ليتّفق الحديثان؛ إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح في أنّ العرش سابق على التقدير، والتقدير مقارن لخلق القلم، وفي اللفظ الآخر: «**لما خلق الله القلم قال له: اكتب**» اهـ.

وقد أشبع شيخ الإسلام هنا في الاستدلال للقول بأنّ العرش قبل القلم بما لا مزيد عليه، فتأمل. وانظر فتح الباري ١/ ٢٨٩، والصفدية ٢/ ٨٢.

والدليل على هذا القول الثاني وجوه[1]:

أحدها: أنّ قول أهل اليمن: «**جئنا لنسألك عن أول هذا الأمر**»: إما أن يكون الأمر المشار إليه هذا العالم، أو جنس المخلوقات. فإنْ كان المراد هو الأول كان النبي ـ ﷺ ـ قد أجابهم؛ لأنه أخبرهم عن أول خلق هذا العالم.

وإن كان المراد الثاني لم يكن قد أجابهم؛ لأنه لم يذكر أول الخلق مطلقاً؛ بل قال: «**كان الله ولا شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء ثم خلق السموات والأرض**». فلم يذكر إلاّ خلق السموات والأرض، لم يذكر خلق العرش، مع أنّ العرش مخلوق أيضاً. فإنه يقول: ﴿ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [التوبة: ١٢٩]. وهو خالق كلّ شيء: العرش وغيره. وربّ كلّ شيء: العرش وغيره. وفي حديث أبي رزين قد أخبر النبي ـ ﷺ ـ بخلق العرش[2]، وأما

---

(١) انظر فتح الباري ٦/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩.

(٢) عن أبي رزين قال: قلت: يا رسول الله، أين كان ربنا قبل أن يخلق السموات والأرض؟ قال: «**كان في عماء، ما تحته هواء، وما فوقه هواء، ثم خلق عرشه على الماء**»: رواه الترمذي (٣١٠٩)، وابن ماجه (١٨٢)، وأحمد ٤/ ١١ ـ ١٢، والطيالسي (١٠٩٣)، والطبراني في المعجم الكبير (٤٦٨) ١٩/ ، وابن حبان (٦١٤١)، وعبد الله في السنة (٤٥٠)، والطبري في تفسيره ١٢/ ٤، وتاريخه =

في حديث عمران فلم يخبر بخلقه؛ بل أخبر بخلق السموات والأرض، فعلم أنه أخبر بأول خلق هذا العالم لا بأول الخلق مطلقاً.

وإذا كان إنما أجابهم بهذا علم أنهم إنما سألوه عن هذا، لم يسألوه عن أول الخلق مطلقاً؛ فإنه لا يجوز أن يكون أجابهم عما لم يسألوه عنه ولم يجبهم عما سألوا عنه، بل هو - ﷺ - منزّه عن ذلك، مع أنّ لفظه إنما يدلّ على هذا؛ لا يدلّ على ذكره أول الخلق. وإخباره بخَلْق السموات والأرض بعد أنْ كان عرشه على الماء يقصد به الإخبار عن ترتيب بعض المخلوقات على بعض، فإنهم لم يسألوه عن مجرد الترتيب، وإنما سألوه عن أول هذا الأمر، فعلم أنهم سألوه عن مبدأ خَلْق هذا العالم فأخبرهم بذلك، كما نطق في أولها في أول الأمر: «**خلق الله السموات والأرض**». وبعضهم يشرحها في البدء، أو في الابتداء خلق الله السموات والأرض.

والمقصود أنّ فيها الأخبار بابتداء خلق السموات

= ١/ ٣١، وابن أبي عاصم في السنة (٦١٢)، وابن أبي زمنين (٣١)، وأبو الشيخ في العظمة (٨٣) ١/ ٣٦٤، وابن أبي شيبة في العرش (٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٨٠٢). وسنده ضعيف، فيه: وكيع بن حدس: «مقبول» اهـ انظر التقريب ٢/ ٣٣١.

والأرض. وأنه كان الماء غامراً للأرض، وكانت الريح تهب على الماء فأخبر أنه حينئذ كان هذا ماءً وهواءً وتراباً، وأخبر في القرآن العظيم أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام وكان عرشه على الماء، وفي الآية الأخرى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] وقد جاءت الآثار عن السلف بأنّ السماء خلقت من بخار الماء، وهو الدخان[1].

---

(١) مثل ما روي عن ابن عباس، وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ ـ قال: «إن الله تبارك وتعالى كان على عرشه على الماء، ولم يخلق شيئاً غير ما خلق قبل الماء، فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء...

رواه ابن جرير في تفسيره ١٤/٢٩، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٧٩ ـ ٣٨٠، وابن خزيمة في التوحيد (٥٩٥) ٢/ ٨٨٦ ـ ٨٨٧، والذهبي في العلو ص ١٠٥. وانظر تفسير ابن كثير ٤/ ٤٠٠.

وفي سنده أبو صالح باذام: ضعيف، مدلس، كما في التقريب ١/ ٩٣.

ومثل ما ورد عن مجاهد قال: خلق الله الأرض قبل ا لسماء، فلما خلق الأرض ثار منها الدخان، فذلك حين يقول: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ ﴾.

قال: فسواهنّ سبع سموات ـ قال: بعضهم فوق بعض ـ، وسبع أرضين بعضهن تحت بعض: =

والمقصود هنا: أنّ النبي ـ ﷺ ـ أجابهم عما سألوه عنه ولم يذكر إلاّ ابتداء خلق السموات والأرض. فدلّ على أنّ قولهم: «**جئنا لنسألك عن أول هذا الأمر**»: كان مرادهم: خَلْق هذا العالم والله أعلم.

الوجه الثاني: أنّ قولهم: «**هذا الأمر**» إشارة إلى حاضر موجود. والأمر يراد به المصدر. ويراد به المفعول به، وهو المأمور الذي كونه الله بأمره، وهذا مرادهم؛ فإنّ الذي هو قوله: كن ليس مشهوداً مشاراً إليه، بل المشهود المشار إليه هذا المأمور به، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ [الأحزاب: ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١] ونظائره متعدّدة، ولو سألوه عن أول الخلق مطلقاً لم يشيروا إليه بهذا؛ فإنّ ذاك لم يشهدوه فلا يشيرون إليه بهذا، بل لم يعلموه أيضاً؛ فإنّ ذاك لا يعلم إلاّ بخبر الأنبياء، والرسولُ ﷺ ـ لم يخبرهم بذلك، ولو كان قد أخبرهم به لما سألوه عنه، فعلم أنّ سؤالهم

= رواه ابن خزيمة في التوحيد (٥٩٦) ٢/ ٨٨٨، ورجاله ثقات.
وانظر تفسير ابن أبي حاتم ١/ ١٠٤ ـ ١٠٥، وتفسير الطبري ١/ ٢٣٠ ـ ٢٣١، وتفسير ابن كثير ١/ ٦٧ ـ ٦٨، والدر المنثور ١/ ٤٢ ـ ٤٣.

كان عن أول هذا العالم المشهود.

الوجه الثالث: أنه قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**»، وقد روي: «**معه**»، وروي: «**غيره**». والألفاظ الثلاثة في البخاري، والمجلس كان واحداً، وسؤالهم وجوابه كان في ذلك المجلس، وعمران الذي روى الحديث لم يقم منه حين انقضى المجلس، بل قام لما أخبر بذهاب راحلته قبل فراغ المجلس، وهو المخبر بلفظ الرسول، فدلّ على أنه إنما قال أحد الألفاظ. والآخران رويا بالمعنى[1]. وحينئذ فالذي ثبت

---

(١) هذا من دقيق فهم شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ، حيث أوضح أتم التوضيح بأن النبي ﷺ ـ قال ذلك الكلام في مجلس واحد، وعمران سمعه منه في مجلس واحد، فلا بد من أنّ إحدى تلك الألفاظ هي مما قالها النبي ـ ﷺ ـ دون غيرها، وغيرها مما روي بالمعنى، من قبل بعض الرواة.

بل ربما يعلم ذلك بطريق القطع، فالمقطوع به أن النبي ـ ـ لم يقل هذه الألفاظ كلها، في مرة واحدة، تلك الساعة، فلم يبق إلا أن يقال: إنّ النبي ـ ﷺ ـ قال لفظة منها، وعبّر عنه بقية الرواة بالمعنى، والله أعلم.

ولا يقال: الجمع يقدّم على الترجيح؛ لأنّ هذه القاعدة ليس هنا مكانها، وإلاّ فلا حاجة للجمع بين ما قاله النبي ـ ﷺ ـ وبين ما لم يقله، أما إذا كانت الألفاظ عديدة لتعدد المجالس، وظهر بعض التعارض فحينئذ نلجأ إلى الجمع. =

عنه لفظ: «القبل»؛ فإنه قد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن النبي - ﷺ - أنه كان يقول في دعائه: **«أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء»**[1]، وهذا موافق ومفسّر لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ﴾ [الحديد: ٣].

وإذا ثبت في هذا الحديث لفظ: «القَبْل»، فقد ثبت أنّ الرسولَ ﷺ - قاله، واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما

= وشيخ الإسلام لم يرجّح لفظ: (القبل) جزافاً، وبالتشهي، بل أيّد كلامه بمنطوق النبي ﷺ، وبغير ذلك من الأدلة، فتمتع بسردها، وبأسلوبه الشيق، المتين السديد. وانظر نكت الحافظ ابن حجر ٢/ ٨٠٨ - ٨١٠، وتوضيح الأفكار ٢/ ٤٦ - ٤٧.

(١) رواه مسلم (٢٧١٣)، والترمذي (٣٤٠٠ - ٣٤٨١)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٧٩٠)، وابن ماجه (٣٨٣١ - ٣٨٧١)، وأحمد في المسند ٢/ ٣٨١ - ٤٠٤ - ٥٣٦، والبخاري في الأدب المفرد (١٢١٢)، وابن أبي شيبة في المصنف (٢٩٣١٣ - ٢٩٣٤٣)، والحاكم ١/ ٥٤٦ و٣/ ١٥٦ - ١٥٧، وابن حبان في صحيحه (٥٥٣٧)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٧١٥)، والطبراني في الدعاء (٢٦١ - ٢٦٢)، والجوزقاني في الأباطيل (٥٥ - ٥٦ - ٦٩٠)، والبغوي في تفسيره ٤/ ٢٩٣، والمقدسي في كتاب الترغيب في الدعاء (١٠٠) ص ٧٩ - ١٨٠.

أبداً، وكان أكثر أهل الحديث إنما يروونه بلفظ القبل: «**كان الله ولا شيء قبله**»، مثل الحميدي، والبغوي، وابن الأثير، وغيرهم[1]. وإذا كان إنما قال: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**» لم يكن في هذا اللفظ تعرّض لابتداء الحوادث ولا لأول مخلوق.

الوجه الرابع: إنه قال فيه: «**كان الله ولم يكن شيء قبله**، ـ أو «**معه**»، أو «**غيره**» ـ، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء»، فأخبر عن هذه الثلاثة بلفظ الواو. لم يذكر في شيء منها (ثم)، وإنما جاء (ثم) في قوله: «**خلق السموات والأرض**». وبعض الرواة ذكر فيه خلق السموات والأرض بـ (ثم). وبعضهم ذكرها بـ(الواو).

فأما الجمل الثلاث المتقدمة فالرواة متّفقون على أنه ذكرها بلفظ الواو، ومعلوم أنّ لفظ الواو لا يفيد الترتيب على الصحيح الذي عليه الجمهور[2]، فلا يفيد الإخبار بتقديم بعض ذلك

(١) سبق تخريج ألفاظهم في مقدمة التحقيق.

(٢) قال الزركشي في البحر المحيط ٢/ ٢٥٣ ـ ٢٥٤: «الواو العاطفة: وفيها مذاهب:

أحدها: وهو الصحيح: أنها لا تدلّ على الترتيب لا في الفعل كالفاء، ولا في المنزلة كـ(ثم)، ولا في الأحوال كـ(حتى)، وإنما هو=

على بعض، وإن قدّر أنّ الترتيب مقصود:

إما من ترتيب الذكر لكونه قدّم بعض ذلك على بعض.

وإما من (الواو) عند مَنْ يقول به، فإنما فيه تقديم كونه على كَوْن العرش على الماء، وتقديم كَوْن العرش على الماء على كتابته في الذكر كلّ شيء، وتقديم كتابته في الذكر كلّ شيء على تقديم خَلْقِ السموات والأرض، وليس في هذا ذكر أول المخلوقات مطلقاً، بل ولا فيه الإخبار بخَلْقِ العرش والماء، وإنْ كان ذلك كلّه مخلوقاً كما أخبر به في مواضع أخر، لكن في جواب أهل اليمن إنما كان مقصوده إخباره إياهم عن بدء خلق السموات والأرض وما بينهما، وهي المخلوقات التي خلقت في ستة أيام لا بابتداء ما خلقه الله قبل ذلك.

الوجه الخامس: أنه ذكر تلك الأشياء بما يدلّ على كونها

= لمجرد الجمع المطلق كالتثنية، فإذا قلت: مررت بزيد وعمرو، فهو كقولك: مررت بهما.

قال سيبويه في: مررت برجل وحمار: لم يجعل الرجل بمنزلة تقديمك إياه يكون بها أولى من الحمار، كأنك قلت: مررت بهما، وليس في هذا دليل على أنه بدأ بشيء قبل شيء. انتهى. فتبين بهذا أنها مجرد الجمع، وأنها كالتثنية لا ترتيب فيها ولا معية.. إلى آخر كلامه. وانظر خلاف العلماء في هذه المسألة مع بيان دليل كل قول في البرهان ٢/ ٢٥٣ ـ ٢٦٠.

ووجودها ولم يتعرّض لابتداء خَلْقها، وذكر السموات والأرض بما يدلّ على خلقها، وسواء كان قوله: «**وخلق السموات والأرض**» أو «**ثم خلق السموات والأرض**» فعلى التقديرين أخبر بخَلْق ذلك، وكلّ مخلوق مُحْدَث كائن بعد أنْ لم يكن، وإنْ كان قد خلق من مادة، كما في صحيح مسلم، عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: «**خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم**»[1].

فإنْ كان لفظ الرسول ـ ﷺ ـ: «ثم خلق» فقد دلّ على أنّ خلق السموات والأرض بعد ما تقدّم ذكره من كَوْنِ عرشه على الماء ومن كتابته في الذكر، **وهذا اللفظ أولى بلفظ رسول الله ﷺ: لما فيه من تمام البيان وحصول المقصود بلفظة الترتيب.**

وإن كان لفظه (الواو) فقد دلّ سياق الكلام على أنّ مقصوده أنه خلق السموات والأرض بعد ذلك، وكما دلّ على ذلك سائر النصوص؛ فإنه قد علم أنه لم يكن مقصوده الإخبار

---

(١) رواه مسلم (٢٩٩٦)، وأحمد ٦/١٥٣ ـ ١٦٨، وعبد بن حميد (١٤٧٩)، وابن حبان (٦١٥٥) ١٤/٢٥، والبيهقي في الأسماء والصفات ص ٣٨٥ ـ ٣٨٦.

بخَلْقِ العرش ولا الماء: فضلاً عن أنْ يقصد أنّ خَلْقَ ذلك كان مقارناً لخَلْقِ السموات والأرض، وإذا لم يكن في اللفظ ما يدلّ على خَلْقِ ذلك إلاّ مقارنة خَلْقِهِ لِخَلْقِ السموات والأرض ـ وقد أخبر عن خَلْقِ السموات مع كَوْنِ ذلك ـ علم أنّ مقصوده أنه خلق السموات والأرض حين كان العرش على الماء، كما أخبر بذلك في القرآن، وحينئذ يجب أن يكون العرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض، كما أخبر بذلك في الحديث الصحيح حيث قال: «**قدّر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»[1].

فأخبر أنّ هذا التقدير السابق لخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة حين كان عرشه على الماء.

الوجه السادس: أنّ النبي ـ ﷺ ـ: إما أن يكون قد قال: «**كانْ ولم يكن قبله شيء**»؛ وإما أن يكون قد قال: «**ولا شيء معه**» أو «**غيره**». فإنْ كان إنما قال اللفظ الأول لم يكن فيه تعرّض لوجوده تعالى قبل جميع الحوادث. وإن كان قد قال الثاني أو الثالث فقوله: «**ولم يكن شيء معه وكان عرشه على**

(١) سبق تخريجه ص ٤٣.

الماء وكتب في الذكر»:

إما أن يكون مراده أنه حين كان لا شيء معه كان عرشه على الماء.

أو كان بعد ذلك كان عرشه على الماء:

فإن أراد الأول كان معناه لم يكن معه شيء من هذا الأمر المسؤول عنه وهو هذا العالم، ويكون المراد أنه كان الله قبل هذا العالم المشهود وكان عرشه على الماء.

وأما القسم الثالث: وهو أن يكون المراد به: كان لا شيء معه، وبعد ذلك كان عرشه على الماء، وكتب في الذكر ثم خلق السموات والأرض. فليس في هذا إخبار بأول ما خَلَقَهُ اللهُ مطلقاً، بل ولا فيه إخباره بِخَلْقِ العرش والماء، بل إنما فهي إخباره بخلق السموات والأرض. ولا صرّح فيه بأنّ كَوْن عرشه على الماء كان بعد ذلك، بل ذكره بحرف (الواو)، و(الواو) للجمع المطلق والتشريك بين المعطوف والمعطوف عليه. وإذا كان لم يبيّن الحديث أول المخلوقات، ولا ذكر متى كان خلق العرش الذي أخبر انه كان على الماء مقروناً بقوله: «**كان الله ولا شيء معه**»، دلّ ذلك على أنّ النبي - ﷺ - لم يقصد الإخبار بوجود الله وحده قبل كلّ شيء، وبابتداء المخلوقات بعد ذلك؛ إذ لم يكن لفظه دالاً على ذلك، وإنما قصد الإخبار بابتداء خَلْقِ

السموات والأرض.

الوجه السابع: أنْ يقال: لا يجوز أن يجزم بالمعنى الذي أراده الرسول - ﷺ - إلاّ بدليل يدلّ على مراده، فلو قدّر أنّ لفظه يحتمل هذا المعنى وهذا المعنى لم يجز الجزم بأحدهما إلاّ بدليل. فيكون إذا كان الراجح هو أحدهما، فمن جزم بأن الرسول - ﷺ - أراد ذلك المعنى الآخر فهو مخطىء.

الوجه الثامن: أن يقال: هذا المطلوب لو كان حقّاً لكان أجلّ من أنْ يحتجَّ عليه بلفظ محتمل في خبر لم يروه إلاّ واحد، ولكان ذكر هذا في القرآن والسنة من أهم الأمور: لحاجة الناس إلى معرفة ذلك؛ لما وقع فيه من الاشتباه والنزاع واختلاف الناس. فلما لم يكن في السُّنَّةِ ما يدلّ على هذا المطلوب؛ لم يجز إثباته بما يظن أنه معنى الحديث بسياقه، وإنما سمعوا أنّ النبي - ﷺ - قال: «**كان الله ولا شيء معه**» فظنوه لفظاً ثابتاً مع تجرّده عن سائر الكلام الصادر عن النبي - ﷺ - وظنوا معناه: الإخبار بتقدّمه تعالى على كلّ شيء، وبنوا على هذين الظنين نسبة ذلك إلى النبي - ﷺ - وليس عندهم بواحدة من المقدمتين علم، بل ولا ظنّ يستند إلى أمارة.

وهَبْ أنهم لم يجزموا بأن مراده المعنى الآخر، فليس عندهم ما يوجب الجزم بهذا المعنى وجاء بينهم الشك، وهم

ينسبون إلى الرسول ما لا علم عندهم بأنه قاله، وقد قال تعالى: ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٢٦].

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْيَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣] وهذا كلّه لا يجوز.

الوجه العاشر[١]: أنه قد زاد فيه بعض الناس: «وهو الآن على ما عليه كان»، وهذه الزيادة إنما زادها بعض الناس من عنده، وليست في شيء من الروايات[٢]. ثم إنّ منهم مَنْ يتأولها على أنه ليس معه الآن موجود، بل وجوده عين وجود المخلوقات! كما يقوله أهل وحدة الوجود الذين يقولون: عين وجود الخالق هو عين وجود المخلوق. كما يقوله ابن عربي؛ وابن سبعين؛ والقونوي؛ والتلمساني؛ وابن الفارض؛ ونحوهم. وهذا القول مما يعلم بالاضطرار شرعاً وعقلاً أنه باطل.

الوجه الحادي عشر: أنّ كثيراً من الناس يجعلون هذا

---

(١) لم يذكر الوجه التاسع. فتنبه!!

(٢) قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري ٦/ ٢٨٩: «وقع في بعض الكتب في هذا الحديث زيادة: «كان الله ولا شيء معه، وهو الآن على ما عليه كان». وهي زيادة ليست في شيء من كتب الحديث، نبّه على ذلك العلامة تقي الدين ابن تيمية».

عمدتهم من جهة السمع: أنّ الحوادث لها ابتداء، وأنّ جنس الحوادث مسبوق بالعدم إذ لم يجدوا في الكتاب والسنة ما ينطق به؛ مع أنهم يحكون هذا عن المسلمين واليهود والنصارى، كما يوجد مثل هذا في كتب أكثر أهل الكلام المبتدع في الإسلام الذي ذمّه السلف؛ وخالفوا به الشرع والعقل. وبعضهم يحكيه إجماعاً للمسلمين، وليس معهم بذلك نقل، لا عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا عن الكتاب والسنة فضلاً عن أن يكون هو قول جميع المسلمين.

والبعض يظن أنّ مَنْ خالف ذلك فقد قال بقدم العالم، ووافق الفلاسفة الدهرية؛ لأنه نظر في كثير من كتب الكلام فلم يجد فيها إلاّ قولين:

١ ـ قول الفلاسفة القائلين بقدم العالم: إما صورته وإما مادته، سواء قيل: هو موجود بنفسه؛ أو معلول لغيره.

٢ ـ وقول مَنْ رَدّ على هؤلاء من أهل الكلام: الجهمية؛ والمعتزلة؛ والكرامية؛ الذين يقولون: إنّ الربّ لم يزل لا يفعل شيئاً ولا يتكلّم بشيء، ثم أحدث الكلام والفعل بلا سبب أصلاً.

وطائفة أخرى كالكلاّبية ومَنْ وافقهم يقولون: بل الكلام قديم العين إما معنى واحد، وأما أحرف وأصوات قديمة أزلية

قديمة الأعيان.

ويقول هؤلاء: إنّ الرب لم يزل لا يفعل شيئاً، ولا يتكلّم بمشيئته وقدرته، ثم حدث ما يحدث بقدرته ومشيئته، إما قائماً بذاته أو منفصلاً عنه عند مَنْ يجوز ذلك، إمّا منفصلاً عنه عند من لم يجوز قيام ذلك بذاته.

ومعلوم أنّ هذا القول أشبه بما أخبرت به الرسل من أنّ الله خالق كلّ شيء، وأنّ الله خلق السموات والأرض في ستة أيام، فمن ظن أنه ليس للناس إلاّ هذان القولان وكان مؤمناً بأنّ الرسل لا يقولون إلاّ حقاً يظن أنّ هذا قول الرسل ومن اتبعهم. ثم إذا طولب بنقل هذا القول عن الرسل لم يمكنه ذلك ولم يمكن لأحد أن يأتي بآية ولا حديث يدلّ على ذلك، لا نصاً ولا ظاهراً، بل ولا يمكنه أن ينقل ذلك عن أحد من أصحاب النبي ـ ﷺ ـ والتابعين لهم بإحسان.

وقد جعلوا ذلك معنى حدوث العالم الذي هو أول مسائل أصول الدين عندهم، فيبقى أصل الدين الذي هو دين الرسل عندهم، ليس عندهم ما يعلمون به أنّ الرسول قاله، ولا في العقل ما يدلّ عليه، بل العقل والسمع يدلّ على خلافه. ومَنْ كان أصل دينه الذي هو عنده دين الله ورسوله لا يعلم أنّ الرسول جاء به كان من أضلّ الناس في دينه.

الوجه الثاني عشر: أنهم لما اعتقدوا أنّ هذا هو دين الإسلام أخذوا يحتجّون عليه بالحجج العقلية المعروفة لهم، وعمدتهم التي هي أعظم الحجج، **مبناها على امتناع حوادث لا أول لها**، وبها أثبتوا حدوث كلّ موصوف بصفة، وسموا ذلك إثباتاً لحدوث الأجسام، فلزمهم **على** ذلك نفي صفات الربّ ـ عزّ وجلّ ـ، وأنه ليس له علم ولا قدرة ولا كلام يقوم به، بل كلامه مخلوق منفصل عنه، وكذلك رضاه وغضبه، والتزموا على ذلك أن الله لا يرى في الآخرة[1]، وأنه ليس فوق العرش[2]، إلى غير ذلك من اللوازم التي نفوا بها ما أثبته الله

---

(١) رؤية المؤمنين عياناً يوم القيامة، عقيدة ثابتة بالكتاب والسنة، تلقتها الأمة بالقبول.

وقد أنكرها بعض شذاذ الخلق من المعتزلة والجهمية والخوارج وغيرهم.

وقد جمع الحافظ الآجري في كتابه «التصديق بالنظر» الأحاديث التي تدل على إثبات رؤية الله تعالى في الآخرة.

ولي رسالة جمعت فيها أدلة هذه العقيدة من القرآن، والسنة، والإجماع، والنظر، وذكرت فيها شبه المخالفين، وجاوبت عليها. وهي موجودة ضمن سلسلة عقائد أئمة السلف من ص ١٨٥ إلى ٣٠٠. طبع دار الكتاب العربي ـ بيروت.

(٢) استواء الله تعالى على عرشه، ثابت بالكتاب، والسنة، وإجماع علماء السلف، وأهل الحديث، ولم يظهر إنكاره إلاّ في أوائل القرن =

ورسوله، **وكان حقيقة قولهم تكذيباً لما جاء به الرسول ـ ﷺ،** وتسلّط أهل العقول على تلك الحجج التي لهم فبيّنوا فسادها.

وكان ذلك مما سلّط الدهرية القائلين بقدم العام لما علموا حقيقة قولهم وأدلتهم ونسوا فساده، ثم لما ظنوا أنّ هذا قول الرسول ـ ﷺ ـ واعتقدوا أنه باطل، قالوا: إنّ الرسول لم يبيّن الحقائق سواء علمها أو لم يعلمها، وإنما خاطب الجمهور بما يخيل لهم ما ينتفعون به. فصار أولئك المتكلّمون النفاة

= الثاني، أظهره الجعد بن درهم.

ثم تأثر به مَنْ أنكر هذه الصفة بادّعاء التنزيه لله تعالى، فأوّلوا (استوى) بـ: (استولى). وقد ردّ عليهم ابن قيم الجوزية بما لا مزيد عليه في كتابه الصواعق المرسلة، وبيّن بطلانه من اثنين وأربعين وجهاً. انظر كتاب اجتماع الجيوش الإسلامية ص ٣٣٧ في ملحقه الثاني، فقد وفّرت على القارىء مؤنة الرجوع إليه.

وصفة العلو لله تعالى صفة ثابتة، وقد حشد ابنُ قدامة، وابن قيم الجوزية، والذهبي في كتبهم: «إثبات صفة العلو»، «واجتماع الجيوش الإسلامية» و«العلو للعلي الغفار» الأدلة من الكتاب، والسنة، والنظر، والاجماع، وأقوال العلماء في شتى أنواع العلوم في إثباتها.

وانظر تلبيس الجهمية ١/ ١٢٧ ـ ٥٥٧ ـ ٥٨٠، وأصول الاعتقاد للإمام اللالكائي ٣/ ٣٨٧ ـ ٤٠٢، وكتاب الصفات للمقدسي ص ٧١ (ضمن عقائد أئمة السلف) بتحقيقنا.

مخطئين في السمعيات والعقليات، وصار خطؤهم مِنْ أكبر أسباب تسلّط الفلاسفة، لمّا ظنّ أولئك الفلاسفة الدهرية أنه ليس في هذا المطلوب إلاّ قولان: قول أولئك المتكلّمين وقولهم.

وقد رأوا أنّ قول أولئك باطل، فجعلوا ذلك حجة في تصحيح قولهم، مع أنه ليس للفلاسفة الدهرية على قولهم بقدم الأفلاك حجّة عقلية أصلاً، وكان مِنْ أعظم أسباب هذا أنهم لم يحقّقوا معرفة ما بعث اللهُ به رسوله ﷺ.

الوجه الثالث عشر: أنّ الغلط في معنى هذا الحديث هو من عدم المعرفة بنصوص الكتاب والسنة، بل والمعقول الصريح؛ فإنه أوقع كثيراً من النّظار وأتباعهم في الحيرة والضلال، فإنهم لم يعرفوا إلاّ قولين: قول الدهرية القائلين بالقدم، وقول الجهمية القائلين بأنه لم يزل معطّلاً عن أن يفعل أو يتكلّم بقدرته ومشيئته، ورأوا لوازم كلّ قول تقتضي فساده وتناقضه، فبقوا حائرين مرتابين جاهلين، وهذه حال مَنْ لا يحصى منهم، ومنهم مَنْ صَرَّح بذلك عن نفسه كما صرّح به الرازي وغيره[(١)].

---

(١) فمن رام علم ما حظر عنه علمه، ولم يقنع بالتسليم فهمه، حجبه مرامه عن خالص التوحيد، وصافي المعرفة، وصحيح الإيمان فيتذبذب بين الكفر والإيمان، والتصديق والتكذيب، والإقرار =

= والإنكار، موسوساً، تائهاً، شاكّاً، لا مؤمناً مصدّقاً، ولا جاحداً مكذّباً، كما يقول الطحاوي في عقيدته ص ١٤٥ (طبعة شاكر).

وهذه الحال التي وصفها الطحاوي ـ رحمه الله ـ هي حال كلّ مَنْ عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة، وعند التعارض يتأوّل النص ويردّه إلى الرأي والآراء المختلفة، فيؤول أمره إلى الحيرة والضلال والشك، كما قال ابن رشد الحفيد، وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم في كتابه «تهافت التهافت»: «ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتدّ به؟!!».

وكذلك الآمدي أفضل أهل زمانه، واقف في المسائل الكبار حائر.

وكذلك الغزالي انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عن تلك الطرق، وأقبل على أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ، فمات والبخاري على صدره.

وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنّفه «أقسام اللذات»:

نهـــايـــة إقـــدام العقـــول عقـــال
وغـــايـــة سعـــي العـــالميـــن ضـــلال
وأرواحنـــا فـــي وحشـــة مـــن جســـومنـــا
وحـــاصـــل دنيـــانـــا أذى ووبـــال
ولـــم نستفـــد مـــن بحثنـــا طـــول عمـــرنـــا
ســـوى أن جمعنـــا فيـــه: قيـــل، وقـــالـــوا

ومن أعظم أسباب ذلك أنهم نظروا في حقيقة قول الفلاسفة فوجدوا أنه لم يزل المفعول المعيّن مقارناً للفاعل أزلاً وأبداً، وصريح العقل يقتضي بأنه لا بد أن يتقدّم الفاعل على فعله، وأنّ تقدير مفعول الفاعل مع تقدير أنه لم يزل مقارناً له لم يتقدّم الفاعل عليه؛ بل هو معه أزلاً وأبداً: أمر يناقض صريح العقل. **وقد استقرّ في الفطر أنّ كَوْن الشيء المفعول مخلوقاً يقتضي أنه**

= فكـــم قـــد رأينـــا مـــن رجـــال ودولـــة
فبـــادوا جميعـــاً مســـرعيـــن وزالـــوا
وكـــم مـــن جبـــال قـــد علـــت شـــرفـــاتهـــا
رجـــال، فـــزالـــوا والجبـــال جبـــال

لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن. . .

ثم قال: ومَنْ جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي.

وكذلك قال الشهرستاني: إنه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلّمين إلاّ الحيرة والندم حيث قال:

لعمـــري لقـــد طفـــت المعـــاهـــد كلّهـــا
وسيـــرت طـــرفـــي بيـــن تلـــك المعـــالـــم
فلـــم أرَ إلاّ واضعـــاً كـــفّ حـــائـــر
علـــى ذقـــن أو قـــارعـــاً ســـن نـــادم

وكذلك قال أبو المعالي الجويني: يا أصحابنا، لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أنّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به.

انظر شرح الطحاوية ص ١٥٠ ـ ١٥٣ (طبعة شاكر).

كان بعد أن لم يكن. ولهذا كان ما أخبر الله به في كتابه من أنه خلق السموات والأرض مما يفهم جميع الخلائق أنهما حدثتا بعد أن لم تكونا، وأما تقدير كونهما لم يزالا معه مع كونهما مخلوقين له فهذا تنكره الفطر، ولم يقله إلاّ شرذمة قليلة من الدهرية كابن سينا[1] وأمثاله.

وأما جمهور الفلاسفة الدهرية كأرسطو[2] وأتباعه فلا

---

(١) هو العلامة الشهير، الفيلسوف، أبو علي، الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، صاحب التصانيف في الطب والفلسفة والمنطق.

قيل: إن مولده في صفر سنة سبعين وثلاث مائة. ويعدّ من الإسماعيلية. وله كتاب الشفا وغيره، وأشياء لا تحتمل، وقد كفّره الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال.

ولقد انبرى شيخ الإسلام بالرد على ابن سينا وأشياعه، وكتبه طافحة في الرد عليه. انظر أخباره في سير أعلام النبلاء ١٧/ ٥٣١ ـ ٥٣٧، وشذرات الذهب ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧، وميزان الاعتدال ١/ ٥٣٩.

(٢) هو أرسطو طاليس بن نيقو ماخوس، من أهل اسطاخرا، لقّب بالمعلم الأول، والحكيم المطلق عند الفلاسفة، وكان مولده في أول سنة من ملك أردشير بن دارا، فلما أتت عليه سبع عشرة سنة أسلمه أبوه إلى المؤدب أفلاطون، فمكث عنده نيفاً وعشرين سنة. وإنما سمّوه المعلم الأول؛ لأنه واضع التعاليم المنطقية. انظر الملل والنحل ٢/ ١١٩.

يقولون: إنّ الأفلاك معلولة لعلّة فاعلة كما يقوله هؤلاء، بل قولهم وإن كان أشدّ فساداً مِنْ قول متأخريهم فلم يخالفوا صريح المعقول في هذا المقام الذي خالفه هؤلاء. وإن كانوا خالفوه من جهات أخرى ونظروا في حقيقة قول أهل الكلام الجهمية والقدرية ومن اتَّبعهم، فوجدوا أنّ الفاعل صار فاعلاً بعد أن لم يكن فاعلاً من غير حدوث شيء أوجب كونه فاعلاً، ورأوا صريح العقل يقتضي بأنه إذا صار فاعلاً بعد أن لم يكن فاعلاً، فلا بدّ من حدوث شيء، وأنه يمتنع في العقل أن يصير ممكناً بعد أن كان ممتنعاً بلا حدوث، وأنه لا سبب يوجب حصول وقت حدث وقت الحدوث: وأنّ حدوث جنس الوقت ممتنع، فصاروا يظنّون إذا جمعوا بين هؤلاء أنه يلزم الجمع بين النقيضين، وهو أن يكون الفاعل قبل الفعل وأنه يمتنع أن يصير فاعلاً بعد أن لم يكن فيكون الفعل معه، فيكون الفعل مقارناً غير مقارن بأن كان بعد أن لم يكن حادثاً مسبوقاً بالعدم، فامتنع على هذا التقدير أن يكون فعل الفاعل مسبوقاً بالعدم، ووجب على التقدير الأول أن يكون فعل الفاعل مسبوقاً بالعدم، ووجدوا عقولهم تقصر عما يوجب هذا الإثبات وما يوجب هذا النفي، والجمع بين النقيضين ممتنع، فأوقعهم ذلك في الحيرة والشك.

ومن أسباب ذلك أنهم لم يعرفوا حقيقة السمع والعقل، فلم

يعرفوا ما دلّ عليه الكتابُ والسنةُ، ولم يميّزوا في المعقولات بين المشتبهات، وذلك أنّ العقل يفرّق بين كَوْنِ المتكلّم متكلِّماً بشيء بعد شيء دائماً، وكَوْن الفاعل يفعل شيئاً بعد شيء دائماً، وبين آحاد الفعل والكلام، فيقول: كلّ واحد من أفعاله لا بدّ أن يكون مسبوقاً بالفاعل، وأن يكون مسبوقاً بالعدم، ويمتنع كَوْن الفعل المعين مع الفاعل أزلاً وأبداً، وأما كَوْن الفاعل لم يزل يفعل فعلاً بعد فعل، فهذا من كمال الفاعل. فإذا كان الفاعل حياً، وقيل: إنّ الحياة مستلزمة الفعل والحركة كما قال ذلك أئمة أهل الحديث كالبخاري[1] والدارمي[2] وغيرهما، وأنه لم يزل متكلماً إذا شاء وبما شاء ونحو ذلك، كما قاله ابن المبارك وأحمد[3] وغيرهما من أئمة أهل الحديث والسنة، كان كونه متكلِّماً أو فاعلاً من لوازم حياته، وحياته لازمة له، فلم يزل متكلِّماً فعّالاً: مع العلم بأنّ الحي يتكلّم ويفعل بمشيئته وقدرته، وأنّ ذلك يوجب وجود كلام بعد كلام، وفعل بعد

---

(١) انظر الرد على الجهمية للبخاري ص ٩٧ و١٨٦ ـ ١٨٨.

(٢) انظر الرد على بشر المريسي للدارمي ص .

(٣) انظر الرد على الجهمية ١/ ١٧٢ (السنة لعبد الله)، والسنة التي توفي عنها رسول الله ﷺ ـ للإمام أحمد ص ٣٨، طبقات الحنابلة ١/ ١٤٤ ـ ٢٩٠ ـ ٣٢٤، والإبانة لابن بطة (٤٩٦ ـ ٤٩٧) ٢/ ٣٢١ (الكتاب الثالث).

فعل، فالفاعل يتقدّم على كلّ فعل من أفعاله، وذلك يوجب أنّ كلّ ما سواه محدث مخلوق، ولا نقول: إنه كان في وقت من الأوقات ولا قدرة حتى خلق له قدرة، والذي ليس له قدرة هو عاجز، ولكن نقول: لم يزل الله عالماً قادراً مالكاً، لا شبه له ولا كيف.

فليس مع الله شيء من مفعولاته قديم معه، لا بل هو خالق كلّ شيء، وكلّ ما سواه مخلوق له، وكلّ مخلوق محدث كائن بعد أنْ لم يكن، وإن قدّر أنه لم يزل خالقاً فعالاً.

وإذا قيل: إنّ الخلق صفة كمال؛ لقوله تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ﴾ [النحل: ١٧] أمكن أن تكون خالقيته دائمة، وكلّ مخلوق له محدث مسبوق بالعدم، **وليس مع الله شيء قديم؟** وهذا أبلغ في الكمال من أن يكون معطّلاً غير قادر على الفعل ثم يصير قادراً، والفعل ممكناً له بلا سبب.

وأما جعل المفعول المعيّن مقارناً له أزلاً وأبداً، فهذا في الحقيقة تعطيل لخلقه وفعله، فإنّ كون الفاعل مقارناً لمفعوله أزلاً وأبداً مخالف لصريح المعقول.

فهؤلاء الفلاسفة الدهرية وإن ادّعوا أنهم يثبتون دوام الفاعلية فهم في الحقيقة معطّلون للفاعلية، وهي الصفة التي هي أظهر صفات الرب تعالى. ولهذا وقع الإخبار بها في أول ما

أنزل على الرسول ﷺ ـ فإنّ أوله: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥] فأطلق الخَلْق، ثم خَصَّ الإنسان، وأطلق التعليم ثم خص التعليم بالقلم، والخلق يتضمّن فعله، والتعليم يتضمّن قوله، فإنه يعلم بتكليمه وتكليمه بالإيحاء؛ وبالتكلّم من وراء حجاب، وبإرسال رسول يوحي بإذنه ما يشاء، قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ﴾ [النساء: ١١٣].

وقال تعالى: ﴿ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ٦١].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤].

وقال تعالى: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٥].

وهؤلاء الفلاسفة يتضمّن قولهم في الحقيقة: إنه لم يخلق ولم يعلم، فإنّ ما يثبتونه من الخلق والتعليم إنما يتضمّن التعطيل؛ فإنه على قولهم لم يزل الفلك مقارناً له أزلاً وأبداً، فامتنع حينئذ أن يكون مفعولاً له؛ فإنَّ الفاعل لا بدّ أن يتقدّم

على فعله، وعندهم أنه لا يعلم شيئاً من جزئيات العلم، والتعليم فرع العلم، فَمَنْ لم يعلم الجزئيات يمتنع أن يعلمها غيره، وكلّ موجود فهو جزئي لا كلّي، كذا الكليات إنما وجودها في الأذهان لا في الأعيان، فإذا لم يعلم شيئاً من الجزئيات لم يعلم شيئاً من الموجودات، فامتنع أنْ يعلم غيره شيئاً من العلم بالموجودات المعينة.

ومَنْ قال منهم: لا يعلم لا كلياً ولا جزئياً: فقوله أقبح.

ومَنْ قال: يعلم الكليات الثابتة دون المتغيّرة فهو عندهم لا يعلم شيئاً من الحوادث، ولا يعلمها لأحد من خلقه، كما يقتضي قولهم: إنه لم يخلقها، فعلى قولهم لا خلق ولا علم! وهذا حقيقة قول مقدّمهم أرسطو، فإنه لم يثبت أنّ الربّ مبدع للعالم، ولا جعله علّة فاعلة، بل الذي أثبته أنه علّة غائيّة يتحرّك الفلك لتشبّهه به كتحريك المعشوق للعاشق، وصرّح بأنه لا يعلم الأشياء، فعنده لا خلق ولا علم. وأول ما أنزل الله على نبيه محمد ـ ﷺ ـ: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ [العلق: ١ ـ ٥].

الوجه الرابع عشر: أنّ الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لدعوة الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له، وذلك يتضمّن

معرفته لما أبدعه من مخلوقاته، وهي المخلوقات المشهودة الموجودة: من السموات والأرض وما بينهما، فأخبر في الكتاب الذي لم يأتِ من عنده كتاب أهدى منه بأنه خلق أصول هذه المخلوقات الموجودة المشهودة في ستة أيام، ثم استوى على العرش.

وشرع لأهل الإيمان أن يجتمعوا كلّ أسبوع يوماً يعبدون الله فيه ويحتفلون بذلك، ويكون ذلك آية على الأسبوع الأول الذي خلق الله فيه السموات والأرض. ولما لم يعرف الأسبوع إلاّ بخبر الأنبياء فقد جاء في لغتهم ـ عليهم السلام ـ أسماء أيام الأسبوع، فإنّ التسمية تتبع النصوص، فالاسم يعبّر عما تصوّره، فلما كان تصوّر اليوم والشهر والحول معروفاً بالعقل تصوّرت ذلك الاسم وعبّرت عن ذلك، وأما الأسبوع فلما لم يكن في مجرّد العقل ما يوجب معرفته، فإنما عرف بالسمع صارت معرفته عند أهل السمع المتلقّين عن الأنبياء دون غيرهم، وحينئذ فأخبروا الناس بخلق هذا العالم الموجود المشهود وابتداء خلقه، وأنه خَلَقه في ستة أيام، وأما ما خلقه قبل ذلك شيئاً بعد شيء فهذا بمنزلة ما سيخلقه بعد قيام القيامة ودخول أهل الجنة وأهل النار منازلهما، وهذا مما لا سبيل للعباد إلى معرفته تفصيلاً.

ولهذا قال عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ: **«قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ مقاماً فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم، وأهل النار منازلهم»** رواه البخاري[1].

فالنبي ـ ﷺ ـ أخبرهم ببدء الخلق إلى دخول أهل الجنة والنار منازلهما.

وقوله: **«بدء الخلق»** مثل قوله في الحديث الآخر: **«قَدَّر اللهُ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة»**[2].

فإنّ الخلائق هنا المراد بها: الخلائق المعروفة المخلوقة بعد خلق العرش وكونه على الماء. ولهذا كان التقدير للمخلوقات هو التقدير لخلق هذا العالم، كما في حديث القلم: **«إنّ الله لما خلقه قال: اكتب»**!

قال: وما أكتب؟

---

(١) رواه البخاري (٣١٩٢) تعليقاً، ووصله الطبراني في مسند رقبة بن مصقلة، كما في الفتح ٦/ ٢٩٠، وهدي الساري ص ٤٨، ومن طريقه رواه الحافظ ابن حجر في تغليق التعليق ٣/ ٤٨٧ ـ ٤٨٨. وانظر فتح الباري ٦/ ٢٩٠.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٤.

قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة»[1].

وكذلك في الحديث الصحيح: «**إنّ الله قَدَّرَ مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة وكان عرشه على الماء**»[2].

وقوله في الحديث الآخر الصحيح: «**كان الله ولا شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كلّ شيء، ثم خلق السموات والأرض**»[3]، يراد به أنه كتب كلّ ما أراد خلقه من ذلك؛ فإنّ لفظ (كلّ) شيء يعمّ في كلّ موضع بحسب ما سيقت له، كما في قوله: ﴿ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٩].

و﴿ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠].

وقوله: ﴿ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الرعد: ١٦].

و﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [النمل: ٢٣].

و﴿ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤].

﴿ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ ﴾ [الذاريات: ٤٩].

---

(١) سبق تخريجه ص ٤٤.

(٢) سبق تخريجه ص ٤٣.

(٣) سبق تخريجه في مقدمة التحقيق ص ٩.

وأخبرت الرسل بتقدّم أسمائه وصفاته كما في قوله: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٥٨] ﴿ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨] ﴿ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [النساء: ٢٣] وأمثال ذلك.

قال ابن عباس: «كان ولا يزال». ولم يقيّد كونه بوقت دون وقت ويمتنع أن يحدث له غيره صفة، بل يمتنع توقّف شيء من لوازمه على غيره سبحانه، فهو المستحق لغاية الكمال، وذاته هي المستوجبة لذلك. فلا يتوقّف شيء من كماله ولوازم كماله على غيره، بل نفسه المقدسة، وهو المحمود على ذلك أزلاً وأبداً، وهو الذي يحمد نفسه ويثني عليها بما يستحقه. وأما غيره فلا يحصي ثناء عليه، بل هو نفسه كما أثنى على نفسه، كما قال سيد ولد آدم في الحديث الصحيح: «**اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك**»[1].

---

(١) رواه مسلم (٤٨٦)، وأبو داود (٨٧٩)، والنسائي ١/ ١٠٢ ـ ١٠٣، و٢/ ٢١٠، والترمذي (٣٤٩٣)، وأحمد ٦/ ٥٨ ـ ٢٠١، وعبد الرزاق (٢٨٨١ ـ ٢٨٨٣)، ومالك ١/ ٢١٤، وابن خزيمة (٦٥٤ ـ ٦٥٥ ـ ٦٧١)، وابن حبان (١٩٣٢ ـ ١٩٣٣)، والطحاوي ١/ ٢٣٤، والبيهقي ٢/ ١١٦ ـ ١٢٧، والبغوي (١٣٦٦) من حديث عائشة رضي الله تعالى عنها.

وإذا قيل: لم يكن متكلّماً ثم تكلّم.

أو قيل: كان الكلام ممتنعاً ثم صار ممكناً له: كان هذا مع وصفه له بالنقص في الأزل وأنه تجدّد له الكمال ومع تشبيهه له بالمخلوق الذي ينتقل من النقص إلى الكمال: ممتنعاً؛ من جهة أنّ الممتنع لا يصير ممكناً بلا سبب، والعدم المحض لا شيء فيه، فامتنع أن يكون الممتنع فيه يصير ممكناً بلا سبب حادث.

وكذلك إذا قيل: كلامه كلّه معنى واحد لازم لذاته ليس له فيه قدرة ولا مشيئة، كان هذا في الحقيقة تعطيلاً للكلام وجمعاً بين المتناقضين، إذ هو إثبات لموجود لا حقيقة له، بل يمتنع أن يكون موجوداً مع أنه لا مدح فيه ولا كمال.

وكذلك إذا قيل: كلامه كلّه قديم العين، وهو حروف وأصوات قديمة لازمة لذاته ليس له فيه قدرة ولا مشيئة. كان هذا مع ما يظهر من تناقضه وفساده في المعقول لا كمال فيه، إذ لا يتكلم بمشيئته ولا قدرته ولا إذا شاءه.

أما قول مَنْ يقول: ليس كلامه إلاّ ما يخلقه في غيره. فهذا تعطيل للكلام من كلّ وجه، وحقيقته أنه لا يتكلّم، كما قال ذلك قدماء الجهمية، وهو سَلْبٌ للصفات؛ إذ فيه من التناقض والفساد حيث أثبتوا الكلام المعروف ونفوا لوازمه: ما يظهر به أنه مِنْ أفسد أقوال العالمين، بأنهم أثبتوا أنه يأمر وينهى؛ ويخبر

ويبشّر؛ وينذر وينادي؛ من غير أن يقوم به شيء من ذلك، كما قالوا: إنه يريد ويحب ويبغض؛ ويغضب، من غير أن يقوم به شيء من ذلك، وفي هذا من مخالفة صريح المعقول وصحيح المنقول ما هو مذكور في غير هذا الموضع.

وأما القائلون بقدم هذا العالم فهم أبعد عن المعقول والمنقول من جميع الطوائف؛ ولهذا أنكروا الكلام القائم بذاته، والذي يخلقه في غيره، ولم يكن كلامه عندهم إلاّ ما يحدث في النفوس من المعقولات والمتخيّلات. وهذا معنى تكليمه لموسى عليه السلام عندهم، فعاد التكليم إلى مجرد علم المكلّم.

ثم إذا قالوا مع ذلك: إنه لا يعلم الجزئيات، فلا علم ولا إعلام، وهذا غاية التعطيل والنقص. **وهم ليس لهم دليل قط على قدم شيء من العالم**، بل حججهم إنما تدلّ على قدم نوع الفعل. وأنه لم يزل الفاعل فاعلاً أو لم يزل لفعله مدة؛ أو أنه لم يزل للمادة مادة. وليس في شيء من أدلتهم ما يدلّ على قدم الفلك، ولا قدم شيء من حركاته؛ ولا قدم الزمان الذي هو مقدار حركة الفلك. والرسل أخبرت بخلق الأفلاك وخلق الزمان الذي هو مقدار حركتها، مع إخبارها بأنها خلقت من مادة قبل **ذلك**، وفي زمان قبل هذا الزمان؛ فإنه سبحانه أخبر أنه

خلق السموات والأرض في ستة أيام، وسواء قيل:

إنّ تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدّرة بطلوع الشمس وغروبها.

أو قيل: إنها أكبر منها، كما قال بعضهم: إنّ كلّ يوم قدره ألف سنة[1]. فلا ريب أنّ تلك الأيام التي خلقت فيها السموات والأرض غير هذه الأيام، وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك. وتلك الأيام مقدّرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض.

وقد أخبر سبحانه أنه ﴿ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١] فخلقت من الدخان، وقد جاءت الآثار عن السلف أنها خلقت من بخار الماء[2]؛ وهو الماء الذي كان العرش عليه، المذكور

---

(١) قال البغوي في تفسيره ٢/ ١٦٤: «أراد به في مقدار ستة أيام؛ لأن اليوم من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، ولم يكن يومئذ يوم ولا شمس ولا سماء.

وقيل: ستة أيام كأيام الآخرة، وكلّ يوم كألف سنة.

وقيل كأيام الدنيا». اهـ. وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٠، وزاد المسير ٣/ ٢١١ ـ ٢١٢.

(٢) سبق تخريج بعض هذه الآثار ص ٤٩.

في قوله: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ ﴾ [هود: ٧].

فقد أخبر أنه خلق السموات والأرض في مدة ومن مادة، ولم يذكر القرآن خَلْقَ شيء من لا شيء، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شيئاً، كما قال: ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾ [مريم: ٩]، مع إخباره أنه خلقه من نطفة.

وقوله: ﴿ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥] **فيها قولان**(١):

---

(١) قال ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٥٥ ـ ٥٦: «فيه أربعة أقوال:
أحدها: أم خلقوا من غير رب خالق؟!
والثاني: أم خلقوا من غير آباء، ولا أمهات، فهم كالجماد لا يعقلون؟!.
والثالث: أم خلقوا من غير شيء، كالسموات والأرض.
أي: إنهم ليسوا بأشد خلقاً من السموات والأرض؛ لأنها خلقت من غير شيء، وهم خلقوا من آدم، وآدم من تراب.
والرابع: أم خلقوا لغير شيء؟
فتكون (من) بمعنى اللام، والمعنى: ما خلقوا عبثاً، فلا يؤمرون ولا ينهون» اهـ. وانظر تفسير البغوي ٤/ ٢٤١، وفتح الباري ٨/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

١ ـ **فالأكثرون**: على أنّ المراد أم خلقوا مِنْ غير خالق، بل من العدم المحض؟ كما قال تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ ﴾ [الجاثية: ١٣]، وكما قال تعالى: ﴿ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ﴾ [النساء: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ﴾ [النحل: ٥٣].

٢ ـ **وقيل**: أم خلقوا من غير مادة؟ وهذا ضعيف، لقوله بعد ذلك: ﴿ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴾ [الطور: ٣٥]، فدلّ ذلك على أنّ التقسيم أم خلقوا من غير خالق، أم هم الخالقون؟ ولو كان المراد من غير مادة لقال: أم خلقوا من غير شيء، أم مِنْ ماء مهين؟ فدلّ على أنّ المراد أنا خالقهم لا مادتهم.

ولأنّ كونهم خُلِقوا من غير مادة ليس فيه تعطيل وجود الخالق، فلو ظنّوا ذلك لم يقدح في إيمانهم بالخالق بل دلّ على جهلهم، ولأنهم لم يظنّوا ذلك ولا يوسوس الشيطان لابن آدم بذلك، بل كلّهم يعرفون أنهم خلقوا من آبائهم وأمهاتهم، ولأنّ اعترافهم بذلك لا يوجب إيمانهم ولا يمنع كفرهم. والاستفهام استفهام إنكار مقصوده تقريرهم أنهم لم يخلقوا من غير شيء، فإذا أقرّوا بأنّ خالقاً خلقهم نفعهم ذلك، وأما إذا أقرّوا بأنهم خلقوا من مادة لم يغنِ ذلك عنهم من الله شيئاً.

الوجه الخامس عشر: أنّ الإقرار بأنّ الله لم يزل يفعل ما يشاء ويتكلّم بما يشاء، هو وصف الكمال الذي يليق به؛ وما سوى ذلك نقص يجب نفيه عنه؛ فإنّ كونه لم يكن قادراً ثم صار قادراً على الكلام أو الفعل مع أنه وصف له؛ فإنه يقتضي أنه كان ناقصاً عن صفة القدرة التي هي من لوازم ذاته، والتي هي من أظهر صفات الكمال، فهو ممتنع في العقل بالبرهان اليقيني، فإنه إذا لم يكن قادراً ثم صار قادراً فلا بدّ من أمر جعله قادراً بعد أن لم يكن، فإذا لم يكن هناك إلاّ العدم المحض امتنع أن يصير قادراً بعد أن لم يكن، وكذلك يمتنع أن يصير عالماً بعد أن لم يكن قبل هذا، بخلاف الإنسان فإنه كان غير عالم ولا قادر ثم جعله غيره عالماً قادراً، وكذلك إذا قالوا: كان غير متكلّم ثم صار متكلّماً.

وهذا مما أورده الإمام أحمد على الجهمية؛ إذ جعلوه كان غير متكلم ثم صار متكلماً. قالوا: كالإنسان، قال: فقد جمعتم بين تشبيه وكفر[١]. وقد حكيت ألفاظه في غير هذا الموضع.

وإذا قال القائل: كان في الأزل قادراً على أن يخلق فيما لا يزال، كان هذا كلاماً متناقضاً؛ لأنه في الأزل عندهم لم يكن

---

(١) انظر الرد على الجهمية للإمام أحمد ١/ ١٧٢ (السنة) وقد سبق تخريج قوله.

يمكنه أن يفعل، ومَنْ لم يمكنه الفعل في الأزل امتنع أن يكون قادراً في الأزل؛ فإنّ الجمع بين كَوْنه قادراً وبين كَوْن المقدور ممتنعاً جمع بين الضدين، فانه في حال امتناع الفعل لم يكن قادراً.

ـ وأيضاً ـ يكون الفعل ينتقل من كونه ممتنعاً إلى كونه ممكناً بغير سبب موجب يحدّد ذلك وعدم ممتنع.

ـ وأيضاً ـ فما من حال يقدّرها العقل إلاّ والفعل فيها ممكن وهو قادر، وإذا قدّر قبل ذلك شيئاً شاءه الله فالأمر كذلك، فلم يزل قادراً والفعل ممكن؛ وليس لقدرته وتمكّنه من الفعل أول، فلم يزل قادراً يمكنه أن يفعل، فلم يكن الفعل ممتنعاً عليه قط.

ـ وأيضاً ـ فإنهم يزعمون أنه يمتنع في الأزل، والأزل ليس شيئاً محدوداً يقف عنده العقل، بل ما من غاية ينتهي إليها تقدير الفعل إلاّ والأزل قبل ذلك بلا غاية محدودة، حتى لو فرض وجود مدائن أضعاف مدائن الأرض في كلّ مدينة من الخردل ما يملؤها؛ وقدّر أنه كلّما مضت ألف ألف سنة فنيت خردلة فني الخردل كلّه والأزل لم ينته، ولو قدر أضعاف ذلك أضعافاً لا ينتهي.

فما من وقت يقدّر إلاّ والأزل قبل ذلك، وما من وقت صدر فيه الفعل إلاّ وقد كان قبل ذلك ممكناً، وإذا كان ممكناً

فما الموجب لتخصيص حال الفعل بالخلق دون ما قبل ذلك فيما لا يتناهى؟!!.

ـ وأيضاً ـ فالأزل معناه: عدم الأولية، ليس الأزل شيئاً محدوداً، فقولنا: لم يزل قادراً بمنزلة قولنا: هو قادر دائماً، وكونه قادراً وصف دائم لا ابتداء له، فكذلك إذا قيل: لم يزل متكلّماً إذا شاء ولم يزل يفعل ما شاء، يقتضي دوام كونه متكلماً وفاعلاً بمشيئته وقدرته، **وإذا ظن الظانّ أنّ هذا يقتضي قدم شيء معه كان من فساد تصوّره؛ فإنه إذا كان خالق كلّ شيء فكلّ ما سواه مخلوق مسبوق بالعدم، فليس معه شيء قديم يقدمه.**

وإذا قيل: لم يزل يخلق، كان معناه لم يزل يخلق مخلوقاً بعد مخلوق، كما لا يزال في الأبد يخلق مخلوقاً بعد مخلوق، ننفي ما ننفيه من الحوادث والحركات شيئاً بعد شيء. **وليس في ذلك إلاّ وصفه بدوام الفعل، لا بأن معه مفعولاً من المفعولات بعينه.**

وإن قدّر: أنّ نوعها لم تزل معه فهذه المعية لم ينفها شرع ولا عقل، بل هي من كماله، قال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ١٧].

والخلق لا يزالون معه، وليس في كونهم لا يزالون معه في المستقبل ما ينافي كماله، وبين الأزل في المستقبل، مع أنه في

الماضي حدث بعد أن لم يكن إذ كان كلّ مخلوق فله ابتداء، ولا نجزم أن يكون له انتهاء، وهذا فرق في أعيان المخلوقات، وهو فرق صحيح لكن يشتبه على كثير من الناس النوع بالعين، كما اشتبه ذلك على كثير من الناس في الكلام فلم يفرّقوا بين كَوْن كلامه قديماً بمعنى: أنه لم يزل متكلّماً إذا شاء، وبين كون الكلام المعين قديماً.

وكذلك لم يفرّقوا بين كَوْن الفعل المعين قديماً وبين كون نوع الفعل المعين قديماً، كالفلك محدث مخلوق مسبوق بالعدم، وكذلك كلّ ما سواه، وهذا الذي دلّ عليه الكتاب والسنة والآثار، وهو الذي تدلّ عليه المعقولات الصريحة الخالصة من الشبه، كما قد بسطنا الكلام عليها في غير هذا الموضع، وبيّنا مطابقة العقل الصريح للنقل الصحيح، وإنْ غلط أهلُ الفلسفة والكلام أو غيرهم فيهما أو في أحدهما، وإلاّ فالقول الصدق المعلوم بعقل أو سمع يصدق بعضه بعضاً لا يكذّب بعضه بعضاً، قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٣٣]. بعد قوله: ﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ [الزمر: ٣٢].

وإنما مدح مَنْ جاء بالصدق وصدّق بالحق الذي جاءه،

وهذه حال مَنْ لم يقبل إلاّ الصدق، ولم يرد ما يجيئه به غيره من الصدق، بل قَبِلَهُ ولم يعارض بينهما ولم يدفع أحدهما بالآخر، وحال مَنْ كذب على الله ونسب إليه بالسمع أو العقل ما لا يصح نسبته إليه، أو كذب بالحقّ لما جاءه، فكذب مَنْ جاء بحق معلوم من سمع أو عقل، وقال تعالى عن أهل النار: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

فأخبر أنه لو حصل لهم سمع أو عقل ما دخلوا النار، وقال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

وقال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

أي: أنّ القرآن حق، فأخبر أنه سيري عباده الآيات المشهودة المخلوقة حتى يتبين أنّ الآيات المتلوّه المسموعة حق.

ومما يعرف به منشأ غلط هاتين الطائفتين غلطهم في الحركة والحدوث ومسمى ذلك.

فطائفة ـ كأرسطو وأتباعه ـ قالت: لا يعقل أن يكون جنس الحركة والزمان والحوادث حادثاً: وأن يكون مبدأ كل حركة

وحادث صار فاعلاً لذلك بعد أنْ لم يكن، وأن يكون الزمان حادثاً بعد أنْ لم يكن حادثاً، مع أنّ قبل وبعد لا يكون إلاّ في زمان، وهذه القضايا كلّها إنما تصدق كلية لا تصدق معينة.

ثم ظنوا أنّ الحركة المعينة، وهي حركة الفلك هي القديمة الأزلية وزمانها قديم، فضلّوا ضلالاً مبيناً مخالفاً لصحيح المنقول المتواتر عن الأنبياء ـ صلى الله عليهم وسلم ـ، مع مخالفته لصريح المعقول الذي عليه جمهور العقلاء من الأولين والآخرين.

وطائفة ظنّوا أنه لا يمكن أن يكون جنس الحركة والحوادث والفعل إلاّ بعد أن لم يكن شيء من ذلك، أو أنه يجب أن يكون فاعل الجميع لم يزل معطّلاً، ثم حدثت الحوادث بلا سبب أصلاً، وانتقل الفعل من الامتناع إلى الإمكان بلا سبب، وصار قادراً بعد أن لم يكن بلا سبب، وكان الشيء بعد ما لم يكن في غير زمان، وأمثال ذلك مما يخالف صريح العقل.

وهم يظنّون مع ذلك أنّ هذا قول أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، وليس هذا القول منقولاً عن موسى، ولا عيسى، ولا محمد ـ صلوات الله عليهم وسلامه ـ، ولا عن أحد من أصحابهم، إنما هو مما أحدثه بعض أهل البدع وانتشر عند

الجهّال بحقيقة أقوال الرسل وأصحابهم، فظنّوا أنّ هذا قول الرسل - صلى الله عليهم وسلم - وصار نسبة هذا القول إلى الرسل وأتباعهم يوجب القدح فيهم:

إما بعدم المعرفة بالحق في هذه المطالب العالية.

وإما بعدم بيان الحق.

وكلّ منهما يوجب عند هؤلاء أنّ يعزلوا الكتاب والسنة وآثار السلف عن الاهتداء.

وإنما ضلّوا لعدم علمهم بما كان عليه الرسول - ﷺ - وأصحابه - رضي الله عنهم - والتابعون لهم بإحسان؛ فإنّ الله تعالى أرسل رسوله - ﷺ - بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كلّه، وكفى بالله شهيداً.

تمت الرسالة

بحمد الله تعالى

خاتمة التحقيق

ختم الله لنا بالحسنى

يقول العبد الفقير إلى عفو مولاه ومغفرته وستره أبو عبد الرحمن، فواز أحمد زمرلي: انتهيت من تحقيق هذه الرسالة المباركة بقدر الطاقة فجر يوم الاثنين الموافق في العاشر من شهر شعبان المعظم.

تقبل الله منا أعمالنا، وجعلها في ميزان حسناتنا يوم نلقاه.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

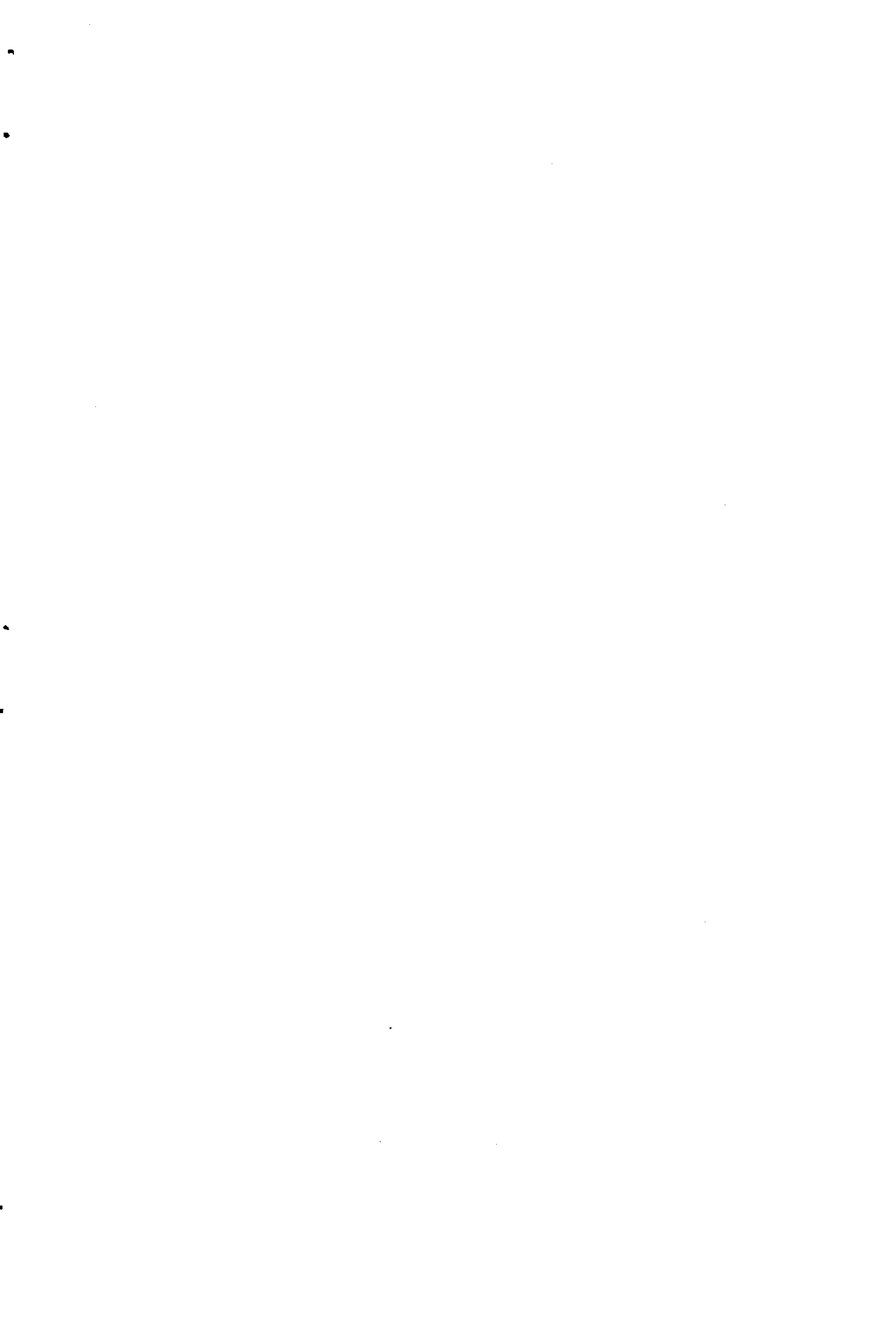
وكتب

أبو عبد الرحمن

فواز أحمد زمرلي

طرابلس الشام

العاشر من شعبان ١٤١٦ هجرية.



الفهارس

١ ـ فهرس الآيات الكريمة .

٢ ـ فهرس الأحاديث الشريفة .

٣ ـ فهرس المصادر والمراجع .

٤ ـ فهرس المواضيع .

فهرس الآيات الكريمة

فهرس الأحاديث الشريفة

فهرس المصادر والمراجع

- **الأباطيل والمناكير**، للجوزقاني، تحقيق عبد الرحمن الفريواتي، الطبعة الثالثة ١٤١٥ هـ، دار الصميعي - الرياض.
- **الإبانة**، لابن بطة، تحقيق رضا نعسان معطي، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، دار الراية - الرياض.
- **اجتماع الجيوش الإسلامية**، لابن قيم الجوزية، تحقيق فواز أحمد زمرلي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
- **الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**، تحقيق شعيب الأرناؤوط، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.
- **أخبار أصبهان**، لأبي نعيم، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **الأسماء والصفات**، للبيهقي، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
- **أصول السنة**، لابن أبي زمنين، تحقيق عبد الله البخاري،

الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، مكتبة الغرباء ـ المدينة المنورة.
ـ **الاعتقاد**، للبيهقي، تحقيق أحمد عصام الكاتب، الطبعة الأولى ١٤٠١ هـ، دار الآفاق الجديدة ـ بيروت.
ـ **الاغتباط بمعرفة من رمي بالاختلاط**، لسبط ابن العجمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
ـ **الأوائل**، لابن أبي عاصم، تحقيق عبد الله الجبوري، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.
ـ **باعث النهضة الإسلامية ابن تيمية السلفي**، لمحمد خليل هراس، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
ـ **البحر المحيط**، للزركشي، تحقيق عبد القادر العاني، وزارة الأوقاف ـ الكويت.
ـ **البداية والنهاية**، لابن كثير، دار المعارف ـ مصر.
ـ **بيان تلبيس الجهمية**، لابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن القاسم.
ـ **تاريخ الأمم والملوك**، للطبري، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
ـ **التاريخ الكبير**، للبخاري، دار الكتب العلمية ـ بيروت.
ـ **التبيان في أقسام القرآن**، لابن قيم الجوزية، تحقيق فواز أحمد زمرلي، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، دار الكتاب العربي ـ

بيروت.
- **الترغيب في الدعاء**، للحافظ عبد الغني المقدسي، تحقيق فواز أحمد زمرلي، الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ، دار ابن حزم - بيروت.
- **تغليق التعليق على صحيح البخاري**، لابن حجر، تحقيق سعيد القزقي، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ، المكتب الإسلامي - بيروت، ودار عمار - الأردن.
- **تفسير ابن أبي حاتم**، تحقيق أحمد الزهراني، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، مكتبة الدار ودار طيبة، ودار ابن القيم - السعودية.
- **تفسير القرآن العظيم**، لابن كثير، دار المعرفة - بيروت.
- **التوحيد**، لابن منده، تحقيق علي الفقيهي، الطبعة الثانية، الجامعة الإسلامية - المدينة المنورة.
- **توضيح الأفكار**، للصنعاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، الطبعة الأولى ١٣٦٦ هـ، مكتبة الخانجي - مصر.
- **جامع البيان في تأويل القرآن**، للطبري، الطبعة الأولى ١٤١٢ هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **الحجة في بيان المحجة**، تحقيق محمد بن ربيع بن هادي،

الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، دار الراية ـ الرياض.
- **حلية الأولياء**، لابن نعيم، الطبعة الرابعة ١٤٠٥ هـ، دار الكتاب العربي ـ بيروت.
- **الدرر الكامنة**، لابن حجر، دار الجيل ـ بيروت.
- **الدر المنثور في التفسير بالمأثور**، دار المعرفة ـ بيروت.
- **الدعاء**، للطبراني، تحقيق محمد البخاري، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ، دار البشائر ـ بيروت.
- **دفع الشبه الغوية عن شيخ الإسلام ابن تيمية**، تأليف مراد شكري، (دون ذكر الناشر والتاريخ).
- **زاد المسير في علم التفسير**، الطبعة الرابعة ١٤٠٧ هـ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.
- **الرد على الجهمية**، للإمام أحمد، طباعة مصر ـ بدون ذكر اسم الطابع (وانظر السنة للإمام عبد الله).
- **الرد على الجهمية**، للدارمي، تحقيق بدر البدر، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، الدار السلفية ـ الكويت.
- **رؤية الله في الآخرة**، بقلم فواز أحمد زمرلي (ضمن عقائد أئمة السلف).
- **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، للشيخ محمد ناصر الدين الألباني، المكتب الإسلامي، ومكتبة المعارف.

- **سنن الترمذي**، تحقيق أحمد شاكر وجماعة، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، دار إحياء السنة النبوية - مصر.
- **سنن البيهقي**، دار المعرفة - بيروت.
- **السنة**، لابن أبي عاصم، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، الطبعة الثانية ١٤٠٥ هـ، المكتب الإسلامي - بيروت.
- **السنة**، لعبد الله، تحقيق محمد القحطاني، الطبعة الثانية ١٤١٤ هـ، رمادي للنشر والمؤتمن للتوزيع - السعودية.
- **السنة التي توفي عنها رسول الله - ﷺ -**، للإمام أحمد، تحقيق فواز أحمد زمرلي، ضمن عقائد أئمة السلف، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ، دار الكتاب العربي.
- **سنن النسائي (المجتبى)** - دار الكتاب العربي - بيروت.
- **سنن النسائي الكبرى**، تحقيق عبد الغفار البنداري وسيد حسن، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، تحقيق جماعة، الطبعة الثامنة ١٤١٢ هـ، مؤسسة الرسالة - بيروت.

- **شذرات الذهب**، لابن العماد، مكتبة القدسي، مصر ١٣٥٠ هـ.
- **شرح أصول الاعتقاد**، للالكائي، تحقيق أحمد سعد حمدان، دار طيبة - الرياض.
- **شرح السنة**، للبغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط وزهير الشاويش، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ، المكتب الإسلامي - بيروت.
- **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق أحمد شاكر، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- **شرح معاني الآثار**، للطحاوي، تحقيق محمد زهري النجار، الطبعة الأولى ١٣٩٩ هـ، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **الشريعة**، للآجري، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية - بيروت.
- **الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية**، لمرعي الكرمي، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ، دار الفرقان - عمان ومؤسسة الرسالة - بيروت.
- **صحيح البخاري**، (انظر فتح الباري).
- **صحيح ابن حبان**، (انظر الإحسان).
- **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق محمد مصطفى الأعظمي، الطبعة الثانية ١٤١٢ هـ، المكتب الإسلامي - بيروت.

ـ صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، نشر إدارات البحوث العلمية ـ الرياض سنة ١٤٠٠ هـ.
ـ الصفات، للحافظ عبد الغني المقدسي (ضمن عقائد أئمة السلف).
ـ الصفدية، لابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية ١٤٠٦ هـ، نشر مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة.
ـ طبقات الحنابلة، لابن أبي يعلى، دار المعرفة ـ بيروت.
ـ العرش، لابن أبي شيبة، تحقيق أبي عبد الله محمد الحمود، الطبعة الأولى ١٤١١ هـ، دار الجيل ـ بيروت.
ـ العظمة، لأبي الشيخ، تحقيق رضاء الله المباكفوري، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، دار العاصمة ـ الرياض.
ـ العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، للحافظ ابن عبد الهادي، تحقيق محمد حامد الفقي، طبعة سنة ١٣٥٦ هـ، مطبعة حجازي ـ القاهرة.
ـ العلو للعلي الغفار، للذهبي، تحقيق عبد الرحمن عثمان، الطبعة الثانية ١٣٨٨ هـ المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.
ـ عمل اليوم والليلة، لابن السني، تحقيق سالم السلفي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، مؤسسة الكتب الثقافية ـ بيروت.
ـ عمل اليوم والليلة، للنسائي، تحقيق فاروق حمادة، الطبعة

الثانية ١٤٠٦ هـ، مؤسسة الرسالة ـ بيروت. .

ـ **فتح الباري**، لابن حجر، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية.

ـ **الفردوس**، للديلمي، تحقيق فواز أحمد زمرلي ومحمد البغدادي، الطبعة الأولى ١٤٠٧ هـ، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

ـ **مجموعة الرسائل والمسائل**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

ـ **المستدرك**، للحاكم، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

ـ **مسند الإمام أحمد**، دار الفكر ـ بيروت.

ـ **مسند الطيالسي**، دار المعرفة ـ بيروت.

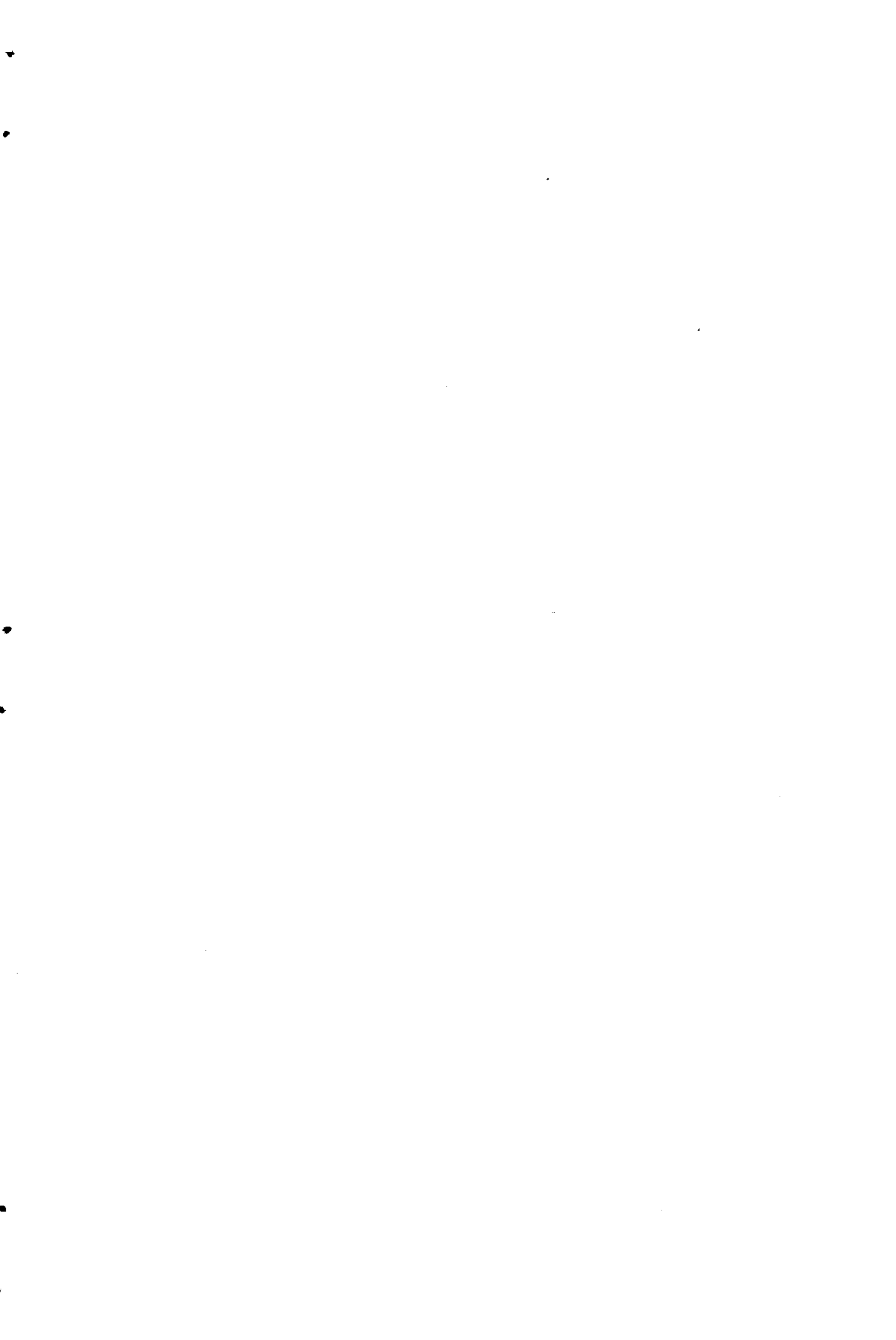
ـ **مسند الشاميين**، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

ـ **المصنف**، لابن أبي شيبة، الطبعة الأولى ١٤٠٩ هـ، دار التاج ـ بيروت.

ـ **المصنف**، لعبد الرزاق، تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي، الطبعة الثانية ١٤٠٣ هـ، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

ـ **معالم التنزيل**، للبغوي، تحقيق خالد العك ومروان سوار، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ، دار المعرفة ـ بيروت.

- **المعجم الكبير**، للطبراني، تحقيق حمدي السلفي، دار إحياء التراث العربي.
- **الملل والنحل**، للشهرستاني، تحقيق فواز أحمد زمرلي، الطبعة الأولى، دار الكتاب العربي - بيروت.
- **المنتخب من المسند**، لعبد بن حميد، تحقيق صبحي السامرائي ومحمود الصعيدي، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ، عالم الكتب - بيروت.
- **منهاج السنة النبوية**، لشيخ الإسلام ابن تيمية، مكتبة الرياض الحديثة - الرياض.
- **الموطأ**، للإمام مالك، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة البابي الحلبي - مصر.
- **ميزان الاعتدال**، للذهبي، تحقيق علي البجاوي، دار المعرفة - بيروت.
- **هدي الساري**، (مقدمة فتح الباري).
- **نكت الحافظ ابن حجر على مقدمة ابن الصلاح**، تحقيق الشيخ ربيع بن هادي، الطبعة الثانية ١٤٠٨ هـ، دار الراية - الرياض.



فهرس الموضوعات

الصفحة